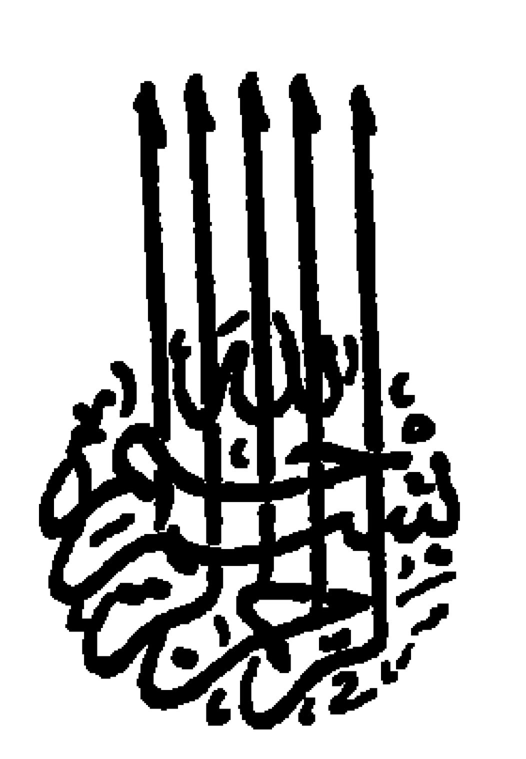

الإسلام
والمشكلة
الجنسية
دكتور
مصطفى عبد الواحد
دار الاعتصام

الإِسلام
وَالمشكلة
الجُنسِيَّة



دكتور
مصطفى عبد الواحد

الإسلام والمشكلة الجنسية

دار الاعتصام

مقدمة

الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

وبعـــــــــد :

فهذه هى الطبعة الثانية من هذا الكتاب الذى صدرت طبعته الأولى منذ أثنتى عشرة سنة وما كنت أحسب أنى سأنشره مرة أخرى للقارئين !

لقد كتبته فى فترة الشباب الأولى ، وأنا يومئذ متحمس ثائر على ما أراه حولى من ظلال الفتنة بالجديد والاندفاع نحو التقليد وما تصنعه الأيدى الخفية فى أوضاع المجتمع الإسلامى المعاصر ، فى غفلة من المسلمين أو استهانة ، ثم يجنى المجتمع ثماره المريرة ..

وقد كنت أكتبه وأنا أنظر إلى هذا الواقع السيىء ، ومن هنا كنت كثير الإشارة إليه مشدود النظر نحوه ، مما جعل للكتاب طابعه السهل ولم يخلص لجانب النظر والدليل ..

حتى إذا نفذت طبعته الأولي منذ سنين كنت أؤخر إعادة نشره ، راجيا أن أضيف إليه مزيداً من العلم والحجة والإقناع وأن أقل فيه من الإشارة إلى واقع المجتمع ..

ولكن الوقت لم يتسع لما كنت أرجوه ، حتى رغب إلى

الكثيرون من الأصدقاء والناشرين فى إعادة طبعه ، فما وجدت أمامى أكثر من أيام معدودة عكفت فيها عليه أزيد فيه قليلا وأنقص منه كثيرا ، واستبدل كلمة بأخرى وأضع أسلوبا وقوراً إن صحت هذه التسمية - مكان أسلوب خفيف !

ورأيت فى نشره على أى حال فائدة للشباب المسلم الذى تصوَّب نحوه السهام وتدبر له المكائد ، والذى يبتغى اعداؤنا أن يصرفوه جملة عن طريق الإسلام ..

مقدمة

الطبعة الثالثة

هذه هى الطبعة الثالثة من هذه الرسالة الموجزة التى تستهدف جلاء الحقيقة لشباب الإسلام استنفاذا لهم من الحرب المدمرة ..التى يشنها أعداء الإسلام على ناشئة هذه الأمة لإغرائهم بمخالفة مبادىء الإسلام والانحراف عن توجيهه فى الاستجابة لما فطر الناس عليه من غرائز ..

إن أعداء الإيمان والتوحيد ..وخصوم الاستقامة والعفاف .. يريدون أشاعة الفاحشة فى المجتمع المسلم ، ويسعون بأجهزتهم الإعلامية ..ووسوستهم الدائبة إلى ايهام الناس بأن الحياء والعفاف والطهر رجعة الى الوراء ونكوص عن التقدم .. بينما يرون الإباحة والفجور والفوضى رقيا وحضارة ومعاصرة !

ومن هنا فلابد من إقناع الشباب المسلم ..بأن الإسلام وهو دين الحق ، يهدى للتى هى أقوم فى كل مجالات الحياة ، وأنه حين يقيد الاستجابة للغريزة بقيد الزواج ،وحين يقيم السدود أمام العدوان والانحراف إنما يزكى النفس ويحول بينها وبين الهلكة ، وأنه عليهم أن يعتصموا بدينهم فى فى وجه تيار الحضارة الغربية الجارف وفلسفتها الخاطئة التى هوت بالإنسان إلى الحضيض فى السلوك والأخلاق .. وأذاقته الشقاء والهوان فى سبيل تحقيق هذه الغاية .

ليكن هذا الكتاب الوجيز كلمة هادفة الى شباب الاسلام

وقلت لنفسى : ليس القصد هنا استعراض المقدرة أو المباهاة بالأفكار ، ولكنه الإصلاح والإرشاد فى هذا الموضوع الخطير الذى نرى آثاره ونلمس جوانبه ..

فلتكن كما أضفت إلى عنوان الكتاب فى هذه الطبعة :

«نظرة الى الواقع تستهدى روح الإسلام»

ولعلها تصيب مكانها فى الشباب والمجتمع ..

والله الهادى إلى سواء السبيل

مصطفى عبد الواحد

مكة المكرمة غرة رمضان سنة ١٣٩١ هـ
أكتوبر سنة ١٩٧١ م



تقـــديم

هذه نظرات واقعية تستهدى روح الإسلام ، إلى مشكلة الغريزة وآثارها فى المجتمع . تلك المشكلة التى يعانى من ويلاتها شباب الإسلام فى هذا العصر .. منذ أن أصبح للحضارة الغربية تأثيرها فى المجتمعات الاسلامية .

ومنذ سنوات يلح علىّ خاطر أن أتناول تلك المشكلة بالنظر فى ضوء الإسلام ، حين تأملت مجتمعنا الإسلامى المعاصر ، وقد بدت فيه أعراض الاضطراب والقلق تجاه مشكلة الغريزة ، فظهرت فيه دعوات خاطئة ، وأعلنت فيه آراء شاذة ، واختلفت الوجهات وتعددت النظرات ، وأخذ كل فريق ينتصر لرأيه ويدعو إليه ، بل يحاول أن يجعله نظاما عمليا يصطبغ به المجتمع ويرضاه ..

وما من شك أن لهذه المشكلة ، ذات الجانب النظرى ، جانباً واقعيّاً نحس به ونلمسه ، ونرى آثاره السيئة ، تنهك القوى وتبدد الجهود ، وتقسم الأمة طوائف مختلفة بين التطور والجمود ..

ولكن الباحث المنصف إذا نظر إلى هذه المشكلة نظرة قريبة ، تعتمد على التراث والتاريخ وترعى الواقع الاجتماعى ، فانه يتبين أنه ما كان لها أن تظهر فى مجتمعنا الإسلامى ، ونحن نملك من المبادىء وندرك من الاتجاهات ما يريح مجتمعنا من العناء . وينقذه من الشقاء وينشر فيه ظلال السكينة والأمان ..

إن فى الإسلام وهو دين الحق مايعصمنا من الاضطراب والحيرة ويحدد لنا سلوكا مستقيما ، حين نثق بحقائقنا ونتمسك بمبادئنا ونبتغى خير أمتنا ونتخلى عن الجهالة والتقليد .

ولكن هناك فئات معدودة فى بعض بيئات المجتمع الإسلامى المعاصر تعمل على بقاء هذه المشكلة دون علاج ، لتتاجر بها وتربح من ورائها ، ثم لا تبالى باضطراب نظام المجتمع وزلزلة أركانه ونقض مبادئه وتزييف حقائقه !

فهناك فنون شتى ذات مؤسسات ودور ، تعتمد على بقاء تلك المشكلة مستعصية ، وكلها تتظاهر بالعلاج وتتصنع الإصلاح ، ولكن المشكلة تزداد والشباب يشقى حين لا يستطيع التوفيق بين ما يؤمن به من عقيدة وما يثق به من رأى وأوضاع المجتمع التى تبرز فيها أمراض الغريزة على نحو هادم غريب ..

ويتبين للناظر فى هذه المشكلة أن أدواء كثيرة فى المجتمع تتعلق بها وتنشأ عنها ، ولابد لعلاجها من علاج تلك المشكلة . فوضع المرأة فى المجتمع وقضية المساواة والاختلاط وعمل المرأة ، والأزياء ووسائل الترويح والتوجيه ، وكثير من الجرائم والانحرافات وغير ذلك من القضايا ، كلها تتعلق بمشكلة الغريزة من قريب أو بعيد ، وحين نعالج أدواء الغريزة ونحول دون طغيانها وعدوانها ، فإن مشكلات كثيرة ستجد الحل الأمثل ، وحينئذ يسعد المجتمع وتصان قواه ويزول ما به من شقاء ووهن .

وعلينا حين نبتغى علاج تلك المشكلة أن ننظر إلى أمتنا بتاريخها ومبادئها وحقيقتها دون جنوح إلى التقاليد والمحاكاة ، ولا نتبع أولئك الذين يدعوننا إلى قبول الحضارة الغربية بأدوائها ومفاسدها أو نرفضها جملة ، وإلا فنحن فى نظرهم نعانى من «الريفية الفكرية [١]» فان تلك الريفية التى يعيبوننا بها أفضل من الردة التى يدعوننا إليها ، والتى تعنى الانسلاخ من حقيقتنا التى نعرف بها أنفسنا ، حتى نصير مسخاً شائها لا ينتمى إلى أصل ولا يرتبط بتاريخ ..

ان تلك الحرب «الأخلاقية» حرب مؤسفة .. لأنها فى الحقيقة لا ترعى فى هذه الأمة إلًّا ولا ذمة ، ولا تذر شيئا من الحق إلا حاولت أن تهدمه بالباطل ، حتى ليزعم «أحدهم» أن الحملة الفرنسية هى التى حررت المرأة المصرية ، لأنها أعطتها حرية البغاء مع جنود الحملة !!

أما الإسلام وما صنعه للمرأة خلال أربعة عشر قرنا .. فلا أثر له عند هؤلاء إلا الجحود والنكران ..

ان مشكلة الغريزة فى العالم الإسلامى المعاصر تتخذ وسيلة لطعن الإسلام فى مبادئه والإزراء عليه فى توجيهه وتشريعه .. ونحن هنا نحاول أن نجلى الحقيقة للناظرين ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ..

ومن الله تبارك وتعالى الهداية والتوفيق .

د . مصطفى عبدالواحد

---

(١) يراجع ما كتبه الدكتور لويس عوض فى صحيفة الأهرام منذ سنوات خلت .. وهو لا يهدأ عن الإلحاح بتلك الفكرة ، وهى اعتناق المذهب الغربى جملة بكل ما فيه ..

غريــزة الجنــس

تعد غريزة النوع من أقوى وأعمق الغرائز البشرية ، فهى تعمل بنشاط دائب وتطالب باستجابة منتظمة

إنها أصيلة فى الكيان البشرى لحكمة سامية وهدف يتعلق ببقاء الحياة واستمرار الأجيال ..

كما جاء فى القرآن : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء** ﴾ [1] .

والفطرة تقتضى الاستجابة لها وتلبية ندائها ، وإلا أصاب الإنسان من تجاهلها التلف والشقاء ..

أما الكبت والخروج عن الفطرة فإنه يصنع مشكلات شديدة التعقيد ، كشفت عنها بحوث علماء النفس فى العصر الحديث ، الذين اكتشفوا صلة الكبت بكثير من العلل والاضطرابات النفسية ، وخلصوا من ذلك بنظريات عن الغريزة تبين علاقتها بنواحى النفس وأثرها فى سلوك الانسان .

وأشهر الذين عنوا بمشكلات الغريزة وكشفوا عن علاقتها بمظاهر النشاط البشرى هو « فرويد » [2] الذى عرف من البحوث التى أجراها على كثير من المصابين بالعلل النفسية أن كبت الشعور بالغريزة كان عاملا قويا فى حدوث هذه العلل ، وانتهى إلى أن غريزة النوع هى المؤثر الأول فى الحياة البشرية ، وأن جوانب النشاط الإنسانى تتأثر بها وتدور حولها .

وكان لنظريات « فرويد » آثارها فى المجتمع الغربى ، الذى اندفع بعدها ملبيا نداء الغريزة ، محطماً القيود الأخلاقية والضوابط الاجتماعية التى تحول دون الانطلاق .

وكأنما نقلت هذه النظريات المجتمع الغربى من حال إلى حال .. إذ كان أشد ما يعانيه المجتمع المسيحى الغربى هو الشعور بالكبت النفسى تجاه الغريزة .

---

(١) سورة النساء ١ .

(٢) سيجموند فرويد الطبيب النمساوى الذى ولد سنة ١٨٥٦م بمورافيا من أبوين يهوديين واتجه بعد تعلمه الطب إلى ميدان التحليل النفسى راجع له : حياتى والتحليل النفسى ، وثلاث مقالات فى نظرية الجنس ترجمة الدكتور مصطفى زيور .

فالنظرة المسيحية إلى الزواج لا تراه أمراً مثالياً ، والسلوك الأسمى لديهم هو الرهبانية والعزوف عن حياة الأسرة ، كما أن المرأة فى نظر الدين المسيحى شيطان يقود إلى الخسران ، ومن هنا كان المسيحى المتدين ينظر إلى الغريزة نظرة استقذار واحتقار ، وعنده أنه من الخير للإنسان أن يتجاهلها ولا يعطيها حقها المشروع ..

وهذه النظرة تقاوم الطبيعة البشرية أعنف مقاومة ، وتكلف الإنسان من العناء النفسى والعقلى ما يعجز عن احتماله ، فالغرائز البشرية الفطرية من القوة والأصالة بحيث لا يمكن أن نخمد نوازعها ، وإذا همدت فى حين فإنها تستيقظ وتطالب بحقها ولو بعد حين ، فليس فى الطاقة البشرية السوية أن تتجاهل الغريزة ، ولا يصح أن تعتقد أنها رجس وضلال ..

لذلك كان لنظريات «فرويد» اثارها القوية فى المجتمع الغربى المسيحى ، الذى انتقل بعدها من حال إلى حال فى السلوك والتقاليد ..

* * *

والحق أن «فرويد» لم يأت بجديد حين أعلن علاقة الغريزة بمظاهر السلوك الإنسانى ، فذلك أمر واضح للمتأمل للطبيعة البشرية ، ولكنه غالى فى هذا التأثير ، فجعل الغريزة النوعية هى الموجه الأول ، بل الوحيد لنشاط الإنسان .

وكان «فرويد» صادقاً حين قرر علاقة الكبت ببعض الاضطرابات والعلل النفسية ، وكان فى ذلك معبراً عن واقع المجتمع المسيحى الغربى الذى ما كان يتيح لأفراده التخلص من الكبت النفسى تجاه الغريزة ولا أن يخلصهم من عقدة الاستقذار لها .

ولكن المجتمع الغربى قد أخطأ حين انحرف فى طريقة علاج مشكلة الغريزة ، وانتقل من النقيض إلى النقيض ، متأثرا بتهاويل «فرويد» عن الغريزة ، خارجا على تعاليم المسيحية المتطهرة المستقذرة للغريزة المترفعة عن الزواج ..

* * *

ولا يعنينا أمر نظريات «فرويد» وتأثر المجتمع الغربى بها ، إلا من جهة أن هذه الموجة المنفلتة من الضوابط والآداب ، قد سرت إلى الشرق الإسلامى بتأثير التبعية الفكرية والمحاكاة السلوكية ..

وما كان لهذه النظريات أو غيرها ، من اتجاهات الغرب نحو مشكلة الغريزة أن تحتل مكانا ، ولو ضئيلا ، فى الفكر الإسلامى المعاصر ، فانها نظريات نبعت من مجتمع مخالف لنا فى المبادىء والقيم وفى الأوضاع والعلاقات ..

ولئن كان المجتمع الغربى قد عانى من مشكلة الكبت أو ظهرت فيه العلل النفسية تجاه الغريزة ، فإن المجتمع الإسلامى فى تاريخه الطويل لم يعرف الكبت ولم يُؤثر عنه مصادمة دوافع الحياة ، ولم تظهر فيه مشكلات نحو الغريزة فى يوم من الأيام .

ذلك لأن النظرة الإسلامية تجاه الغريزة تختلف عن النظرة المسيحية اختلافا تاما .

فالإسلام يرى فى الغرائز البشرية جميعها ، ومنها غريزة النوع ، أمراً طبيعيّاً جعله الله سبحانه فى الإنسان لحكمة سامية تتصل باستمرار الحياة وبقاء الأجيال ..

والقرآن يتحدث عن غريزة النوع على أنها نزوع فطرى لا ذنب للإنسان فى الشعور به ، إذ هى عنصر من عناصر الطبيعة البشرية لا يد للإنسان من وجوده :

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعامِ والحرثِ ذلك متاعُ الحياة الدنيا والله عنده حسنُ المآب ﴾ (١) .

فهذه غرائز فطرية يجد الإنسان نفسه مدفوعا إلى الرغبة فيما تتعلق به : غريزة النوع المتمثلة فى الرغبة فى النساء ، وغريزة النسل التى تعبر عن رغبة الإنسان فى البقاء والامتداد ، وغريزة الامتلاك المتعلقة بأنواع المنافع والثروات ..

ولا يلام الإنسان على شعوره بالرغبة فى شىء منها أو إحساسه بالسعى لتحقيق نزوعه نحوها ، ما دام مرتبطا بالقوانين التى شرعها الله سبحانه لإجابة هذه الغرائز ، وليس على المرء من حرج إذا شعر بإلحاح الغريزة على نفسه ، وليس اتجاهه المشروع لتلبيتها مكروها ، بل هو فريضة فى بعض الأحيان ، حين تشتد وطأتها ويرتفع صوتها ، وفى الحالات السوية فإن الاستجابة للغريزة بالزواج المشروع سنة مؤكدة يسارع إليها المسلم ما دام قادرا على أعبائها .

إن الإسلام قد أعفى الإنسان من الحرج تجاه كل ما يثور فى نفسه من احساس أو انفعال طبيعى ، حتى عندما يكون ذلك الإحساس ناشئا عن مؤثر غير مقصود ، كما يعبر عنه الحديث الشريف : « **إن لك النظرة الأولى وليست لك الآخرة** (٢) » .

ذلك لأن الإنسان لا يُسأل إلا عما تعمده وعزم عليه ، ولا يؤاخذ بما يحس به إحساسا فطريا لا يد له فيه .

ولا يمكن فى ظل هذه النظرية الإسلامية أن تنشأ عقدة الكبت فى نفس الإنسان بل ان القرآن يعلن حق الإنسان فى كفاية حاجة الغريزة الفطرية بطريق سوى هو الزواج ، وذلك فى قوله تعالى : **﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها** (٣) **﴾** .

---

(١) سورة آل عمران ١٤ .
(٢) رواه أبو داود والترمذى .
(٣) سورة الروم ٢١

فهى آية من آيات الله تبارك وتعالى : أن ركب فى الانسان غريزة النوع ثم خلق له ما يستجيب لحاجة تلك الغريزة ، وفى ذلك ما يدل على النظام المحكم الذى أقام عليه الحق سبحانه بناء الحياة ..

وعن طريق الزواج – كما نبين فيما بعد – يتحقق العلاج الناجح لمشكلات الغريزة وترضى فطرة الإنسان كل الرضا ، فى ظل هذا الإذن الإلهى المشروع المتمثل فى قوله تعالى :

﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم[1] ﴾ .

والنفس البشرية تجد فى هذا القول الحكيم ظلالا وارفة من الأمن والطمأنينة والنزوع المشروع الذى يقى الإنسان شرور القلق واختلال السلوك .

ومن هنا نستطيع أن نقرر بوضوح : أنه فى ظل النظرة الإسلامية لطبيعة الغريزة وموقف الإسلام منها ينتفى الكبت ويختفى الصراع النفسى الرهيب .. وليس هناك أفسح وأروح لمشاعر الإنسان من تقرير القرآن الكريم أن هذه الغريزة طبيعة ركبت فى الناس ولا اثم عليهم من الإحساس بها ولا حرج فى النزوع نحو الاستجابة المشروعة لها .

يقول الاستاذ محمد قطب :

«.. فحين يحس الفتى فى طور المراهقة بالرغبة الغريزية فإنه لا يحتاج – فى الإسلام – أن يستعيذ بالله من هذا الإحساس المجرد ، لأن الإسلام يقرر فى صراحة أن هذا أمر طبيعى لا خلاف عليه ولا نكران له ..

وعلى ذلك لا يحتاج أن يكبت الشعور بهذه الرغبة ، لكى يتطهر فى نظر الناس ونظر نفسه .. ولا يحتاج كذلك أن يشعر بالاثم من مجرد هذا الإحساس . ومن ثم تنتفى كل الاضطرابات النفسية والعصبية التى تنشأ من الشعور بالإثم والتى تؤدى إلى الجريمة فى حالات الشذوذ .

ولكننا نعلم أن الإسلام لم يبح للفرد أن يطيع هذا الهاتف حسبما اتفق .. وإنما وضع لذلك الحدود الشرعية التى يكون مباحاً فى داخلها محرما فيما وراءها هذا صحيح ، ولكن هذا شيء والكبت شيء آخر .. فهذا تقييد ينظم النشاط ولكنه لا يبته من منبته ، ولا يحرّم الاحساس به فى أية لحظة بين الإنسان ونفسه[2]» .

ولهذا لا يشقى الفرد بعقد الكبت فى ظلال التربية الإسلامية المثلى ولا حاجة فى المجتمع الإسلامى لنظريات «فرويد» فى الكبت واتجاهاته فى التحليل النفسى وتفسير الأحلام ، مما يظنه المفتونون بحضارة الغرب حقائق لا محيد عنها !!

---

(١) سورة البقرة ٢٢٣ .

(٢) الإنسان بين المادية والإسلام للأستاذ محمد قطب .

هذا إلى أن الحقيقة التاريخية للمجتمع الإسلامي في أجياله المتعاقبة تشهد بصدق النظرة الإسلامية ونجاحها في حل مشكلة الغريزة والتوفيق بين الواقع والمثال. ذلك لأن الاستجابة الغريزية متمثلة في الزواج كانت تتم في يسر وطواعية دون إعنات للفرد ولا إحباط لنوازعه ، إذ تعلم المسلمون من دينهم أن ينظروا إلى هذه الغريزة نظرة صادقة تمثل رغبة مشروعة لها صداها في نفس الفرد وفي نظام المجتمع ، ومن هنا فلابد من كفايتها بأسلوب ميسور ، لا يشقي الإنسان ولا يحيره ، ولا يضطره إلى التخفي أو الصراع النفسي . وهذا هو توجيه الإسلام الحق ، الذي كفل للإنسان كفاية حاجاته الطبيعية ، ودعا الناس إلى أن يمحقوا الصعاب التي تقف في وجه الفطرة وتصادم ضرورات الإنسان .

ليس وراء هذا يسر :

ونضرب المثل للسلوك الاجتماعي الإسلامي تجاه الغريزة ، بهذه الصورة التي ذكرها الإمام الغزالي في «إحياء علوم الدين» وهي نموذج للفهم البصير والمعالجة اليسيرة لهذه المشكلة في الأجيال الإسلامية المستمسكة بحقائق الدين :

روى عن عبدالله بن وداعة قال : كنت أجالس سعيد بن المسيب – وهو من أئمة التابعين فتفقدني أياما ، فلما أتيته قال : أين كنت ؟ .

قلت : توفيت أهلي فاشتغلت بها . فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ؟ قال : ثم أردت أن أقوم ، فقال : هل استحدثت امرأة ؟ فقلت : يرحمك الله تعالى ! ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ! فقال : أنا . فقلت : وتفعل ؟! قال : نعم . فحمد الله تعالى وصلى على النبي ﷺ ، وزوجني على درهمين ، أو قال ثلاثة .

قال : فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح ، فصرت إلى منزلي ، وجعلت أفكر ممن آخذ وممن أستدين ، فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي فأسرجت ، وكنت صائماً فقدمت عشائي لأفطر – وكان خبزاً وزيتاً ، وإذا بابي يقرع فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد . قال : فأفكرت في كل إنسان اسمه سعيد ، إلا سعيد بن المسيب – وذلك أنه لم يُرَ أربعين سنة إلا بين داره والمسجد – فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب ، فظننت أنه قد بدا له (أي رجع عن رأيه) فقلت : يا أبا محمد لو أرسلت إلى لأتيتك ! فقال : لا ، أنت أحق أن تؤتى قلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلا عزبا فتزوجت ، فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك ! وهذه امرأتك ، وإذا هي قائمة خلفه في طوله فدفعها في الباب ورده ! قال : ثم دخلت بها ، فإذا هي من أجمل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى ، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج !

وكانت بنت سعيد بن المسيب هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبى سعيد أن يزوجه !! (١)

هكذا كانت نظرتهم إلى أمر الزواج ، وكان تيسيرهم لشأنه ، وتعويلهم فيه على الحقيقة الإنسانية ، ونبذهم للمظاهر الخادعة وهكذا علمهم الإسلام ..

★★★

---

(١) أحياء علوم الدين ١٠٤/٣

كيف تستجيب ؟

حين نقرر حق الانسان فى الاستجابة لحاجة الغريزة ، اذ أنها ضرورة من ضرورات الحياة البشرية ، فلابد لنا أن نعالج النظر فى الصورة التى تتحقق بها الاستجابة ، وأن نبحث تفاصيل النظام السَّوىّ ، الذى يلائم بين مطالب الفرد ومصالح المجتمع ..

وهنا نجد أمامنا اتجاهين متقابلين عرفتهما المجتمعات الإنسانية فى كل الأجيال .

أحدهما : إطلاق العِنَان لحرّية العلاقات فى الاستجابة للغريزة .

والآخر : تنظيم العلاقات وتقييدها بضوابط وحدود .

وقد سجل التاريخ الاجتماعى آثار كلٍّ من الاتجاهين ونتيجته فى إصلاح النظام الاجتماعى أو إفساده ، وفى إشقاء الإنسان أو اسعاده .

ومما قرّره علم الاجتماع : أن المجتمع الإنسانى لم يسلم يوما ما بالاباحة المطلقة فى العلاقات الغريزية فى مجتمع من المجتمعات ، فإن هذه الإباحة لم تصلح فى نظر الجماعة الإنسانية يوماً ما ، على الرغم مما نادى به بعض الأفراد الذين ظنوا أن فوضى العلاقات قد تصلح مجتمعاتهم فى ظروف خاصة ، كأفلاطون الذى كان يرى الإباحة لطبقة الجنود ، إذ أراد لهم أن يتجردوا من كل رباط ويتخلصوا من كل عاطفة سوى العاطفة نحو الوطن ، فلا يشغلهم بعلاقات الأسرة وعواطفها ..

وهذا ضلال مبين .. فإن الجندى حين يقاتل فإنما يخطر بقلبه حماية أهله وعشيرته ، وما الأسرة الصغيرة إلا صورة رمزية للمجتمع الكبير ..

لكن أوهام الفلاسفة كانت تشذ فى بعض الأحيان عن حدود منطق الحياة وقوانينها .

وهناك غير أفلاطون شذاذ من دعاة الإصلاح بزعمهم ، دعوا إلى إطلاق العنان لفوضى العلاقات ، دون رعاية لنظم الاجتماع ولا قوانين الأسرة [1] .

ورغم هذه الدعوات الغريبة فإن الفطرة الإنسانية لم تسغ أن تكون علاقات الغريزة فوضى فى المجتمع ، ففى كل مجتمع مهما بلغ وهن الأخلاق فيه قام نظام الأسرة ووجدت العلاقات البانية المستقرة ، إلى جانب الفوضى والانحلال . وهذا دليل قائم لا يزال ، على أن الفوضى والإباحة لا تستقيم مع نظام الاجتماع الإنسانى ، ولا تلائم أهداف الحياة الإنسانية .

حتى العرب فى جاهليتهم لم يتدنوا إلى الإباحة ولم يهدموا نظام الأسرة ، وكانت نظرتهم إلى الفاحشة نظرة الزراية والاحتقار ، وكان البغاء لديهم فى الطبقة الاجتماعية الدنيا ، وما كان يلجأ إليه إلا قلة ، هذا رغم الجاهلية التى كانت تغشاهم فى ذلك العصر ..

---

(١) يراجع كتاب «الأسرة والمجتمع» للدكتور على عبد الواحد وافى .

والحق أن المتأمل لمواقف المجتمعات من اجابة هذه الغريزة يجد أن هذه المواقف كانت تنبع من مبادىء هذه المجتمعات ونظراتها إلى الحياة ، فكلما كان المجتمع مجتمع عقيدة صالحة تنظر إلى الحياة نظرة قويمة ، استقامت نظرته إلى الغريزة وتهذب سلوكه نحوها وارتقى .

وكلما أسفَّت نظرة المجتمع إلى الحياة واختلطت عليه قيم الوجود لم يدرك قدرها تدنى فى سلوكه والتوى وشملته الفوضى والاضطراب . وتلك سُنَّة ثابتة يصدقها تاريخ الأجيال . فهؤلاء العرب قبل الإسلام وبعده ، أصدق شاهد لما نقول .

ولقد غرست دعوة الإسلام فى المجتمع العربى القيم الإنسانية والنظرات المثالية التى أحاطت بتلك الغريزة فى الأجيال الواعية .

ولهذا كان الانحراف عن نهج الإسلام وهداه والذهول عن قيمه ومبادئه سببا فيما أصاب المجتمع الإسلامى من اضطراب إزاء تلك الغريزة الفطرية ، فى بعض أجياله .

ثم جاءت الحضارة الغربية فلم تستطع إلا أن تقرَّ الإباحة بل أغرت الناس بالتردّى فى حمأتها ، وهى لا تقدر على الارتفاع عن ذلك ، فليس لها من القيم الخلقية والمبادىء الاجتماعية ما يمكنها من أن تخط للناس طريقاً يبتعد بهم عن المهالك الحضارية أو يوجههم إلى الغايات التى تليق بالإنسان .. لأنها حضارة مادة ومتعة ، ليس لها تطلع إلى ما وراء ذلك .

ومن عجب أن يظن بعض المفتونين من أبناء الشرق أن مسلك الحضارة الغربية إزاء هذه الغريزة مسلك جديد ، يظهر فيه أثر التحرر ويتجلى فيه الإبداع الذى يتسم به عصر التقدم !

وهذا ضلال بعيد ، فإن الغرب المادى لم يخترع جديداً حين اتسع فيه مجال الفوضى وأقرت حضارته إباحية الغريزة ، إذ أن هذا الاتجاه كان سِمَة كلِّ مجتمع لا يعتنق مبادىء خلقية ولا يرى له غايات روحية ، سواء هوى به التخلف المادى إلى الحضيض ، أو ارتقى به التقدم والغنى إلى ذروة القوة والرفاهية .

إن الإنسان قد عرف فى استجابته للغريزة كلا الطريقين : النظام الخلقى والفوضى الجامحة ، واختيار أحد الطريقين والحكم بفساد الآخر لا يأتى هكذا خبط عشواء ، أو اعترافا بالواقع ، على نحو ما تفعل بعض المجتمعات الحديثة ، بل لابد من قياس عقلى ناضج ، يتفق مع كرامة الإنسان ومسئولياته فى هذا الوجود .

والذى يقتضينا ذلك أنه فى القديم لم يكن للخطيئة دعامة فكرية ولا فلسفة تستند إليها ، ولا نظريات تخلق من أجل تبريرها ، ولا دفاع عنها من رجال الفكر والتوجيه .

بل كانت تعتبر انحرافاً سلوكيا يقع فيه الإنسان اما جهلا وسفاهة ، وإما تحت وطأة ظروف اجتماعية مهينة لا يد له بدفعها .

أما حضارة هذا العصر فقد ابتدعت للخطيئة فلسفة تجادل عنها ، ونسجت حولها فنونا شتى من الأفكار الغريبة ، وأصبح لدعاة الخطيئة وسائل خلابة تهيىء المجتمعات لقبول ما يدعون إليه . فهذه آداب وفنون ووسائل توجيه وقفت على الدعوة إلى تبديل السلوك الإنسانى تجاه الغريزة وإطلاق العنان للشهوات بلا حظر ولا تقييد ..

وينشأ عن هذه الفلسفة الزائفة أوضاع اجتماعية خاطئة تيسر الحرام وتقف فى وجه الحلال ، وتحبب الفاحشة إلى الإنسان وتكرّه إليه العفاف والطهر .

ومن هنا كانت مقاومة هذا الانحلال بحاجة الى الانتصار أولا فى معركة الرأى والمبدأ ، ثم معركة التأثير والتوجيه فى المجتمع .

فلابد من فضح الفلسفة الكاذبة التى تقوم عليها فوضى العلاقات فى هذا العصر ، وكشف زيفها وباطلها بما يبصر الشباب بما فيها من خداع وأغاليط يقصد بها مسخ الفطرة الإنسانية وتلويث الحقيقة النقية ، وسبيلنا فى كشف زيف الفوضى أن نناقشها فى ضوء العقل السليم وحقائق التاريخ وأحداث المجتمع ، ثم نرى ما أدت إليه من جناية على الفضيلة والعفاف .

• • •

فوضـــى الغريـــزة

● يقصد بفوضى الغريزة إطلاق العنان لها فى غير إطار النظام الطبيعى المشروع . وقد عرف الإنسان هذا النظام المشروع فى صورة مطردة ، لم تتغير حقيقتها على اختلاف الأزمان ، وهو نظام الزواج الذى اهتدت إليه الفطرة وشرعته الأديان السماوية ، وهو الذى قامت على أساسه تلك المؤسسة الاجتماعية العتيدة : الأسرة . واكتمل بناؤه واستقر تشريعه فيما جاء به الإسلام خاتمة رسالات السماء .

● وفى هذا النظام سكون النفس واستقرار العواطف وتنمية الحياة والتعاون على مواجهة أعبائها والقيام على صنع الجيل الجديد الذى تتحقق به غاية الوجود الإنسانى .

أما الفوضى فهى إباحة العلاقات دون هدف أو التزام ، ودون نظر إلى حق أو واجب ، فليس هناك إلا إجابة نزوة أو تحقيق لذة .

وقبل أن نبين ما وراء هذا الاتجاه من بشاعة وشقاء نفسى ودمار اجتماعى ، نقف أمام الجدل بالباطل الذى تلغو به ألسنة من يزعمون الإصلاح والتوجيه ويتكلفون الفكر والعلم ..

● فإن منهم من يقول : لماذا تفرقون فى علاقات الغريزة ، فتسمون الزواج نظاما وحلالا ، وتسمون الفوضى فاحشة وحراما ، وكلاهما علاقة غريزة ، وصلات رجال بنساء؟. بل إن من دعاة فوضى العلاقات وشيوعية الأعراض من يتبجح ويزعم أن المهر فى الزواج إن هو إلا ثمن متعة وأجر منفعة ، ويرى أنه نوع لا يمتاز عن بقية الأنواع !!

لكن النظر إلى العلاقتين يفرق بينهما فرقا جوهريا ، فإن فى نظام الزواج من العواطف والمشاعر والغايات ما يجعله ارتفاعا بالنفس الإنسانية إلى ذروة الإيثار والتضحية والتعاطف .. إنه بناء للحياة الإنسانية على أساس صادق قويم ..

أما الفوضى فلا غاية لها ولا هدف ، بل هى هدم للنظام الاجتماعى وإشاعة للفساد الخلقى ، يخرج بها الإنسان عن حد الإنسانية وينقلب حيوانا لا ينظر إلى ما وراء لذته .

وإلا .. فما الذى يجعل الإنسان يرغب عن العلاقة الطبيعية التى تدوم وتثمر ، إلى نزوة عابرة لا دوام معها ولا استقرار ؟!

إنه الهرب من الأعباء التى تنشأ عن تلك العلاقة ، والرغبة فى إسقاط التكاليف ، والأثرة فى النظر إلى حظ النفس ، دون رعاية لمصالح المجتمع .

وما دمنا متفقين على أن الغريزة بحاجة إلى الإجابة ، فلا بد من إقرار نظام مطرد الصلاحية مأمون العواقب ، ولا يعقل أن يترك الإنسان إلى النهب والاختلاس والشرود .. إنها غريزة متجددة الحاجة ، لابد لها من علاج منظم ، أما النزوات فإنها تزيدها وبالا على وبال .. ان الفرق بين الحلال والحرام فى إجابة الغريزة كالفرق بين الرزق الحلال من عمل مشروع وبين السرقة والانتهاب .

ولا فرق بين إباحة الأعراض وإباحة الأموال !! فالنظام الاجتماعى هو الذى يجعل الزواج طريقاً لا ثانى له فى إجابة الغريزة ، وهو الذى يحكم بأن فوضى العلاقات شقاء للفرد والجماعة .

والإنسان فى أعماقه يشعر بالفرق بين هذين الاتجاهين .. ففى نظام الزواج يجد الاطمئنان والأمن والشعور بالرضا والاستقرار ، مع الاستعداد لتحمل التكاليف والأعباء . أما فى فوضى العلاقة فهناك القلق والاضطراب والشعور بالمخالسة والانتهاب والإحساس بالإثم واحتقار النفس .

ومن هنا فإن طبيعة النظام هى البناء والإعلاء وطبيعة الفوضى التدمير والهدم .. لا تصل بالفرد إلى خير ، ولا بالمجتمع إلى استقرار أو سلام .

ولا يمكن لعاقل أن يجد مبرراً لفوضى الغريزة أو سنداً مقبولا تقوم عليه .

* * *

أما الإسلام فإنه حين حرم الفوضى فى الاستجابة للغريزة دعا إلى النظام ، بل أوجبه ، والله سبحانه لم يحرم على عباده شيئاً إلا أبدلهم منه سعة من الحلال تضمن لهم الطمأنينة والفلاح . وتلك قاعدة مطردة فى كل ما نهى الله عنه ، كما قال سبحانه :

﴿ وأحلَّ الله البَيْعَ وحرَّم الربَّا [1] ﴾ وكذلك أحل النكاح وحرم السفاح .. والبيع فى عالم الاقتصاد مجال فسيح يعود بالخير على الكافة ..

أما الربا فهو استغلال تشقى به الجماهير ولا يسعد به إلا القليل من أصحاب الثروات الذين يمتصون دماء الكادحين . ولا يختلف أمر السفاح عن الربا ..

فالذين يدعون إليه ويغرون به قلة ، تريد إشاعة الفاحشة وهدم بناء الأخلاق ، لتتيسر لهم المتع والشهوات ، ولتغمر الفوضى المجتمع ثم يتوهون فى الغمار .. أو ليجمعوا الثروات من وراء استغلال ضعف الأخلاق وتكالب الدهماء على إجابة دواعى السقوط والانحلال .

أما أن يكون هناك داع فى فطرة الإنسان للعلاقة الخاطئة فذلك ما يعجز دعاة الفوضى عن إثباته فى حقيقة الحياة .

وإن المجتمع ليشقى أشد الشقاء حين تنبت فيه بذور الفوضى والخطيئة .

مسالك للجريمة :

● إن استحلال الأعراض واستباحة الحرمات ينشىء فى المجتمع مسالك متعددة للجريمة والفساد .

---

(١) سورة البقرة ٣٢ .

فهذه الإباحية ذات صلة وثيقة بالخيانة فى الأموال والغش فى وجوه التعامل .. إذ أن المال يتخذ سلاحاً للإيقاع والتغرير ، ومن أين لهؤلاء المال الذى يتسع للنزوات الدائمة والعلاقات المتقلبة .. التى تستنفد ما لمرتكبيها من مال .. فإذا فرغ المال لجأوا إلى طريق الكسب الحرام ، كالرشوة والخيانة والاختلاس والجريمة . وهى كذلك ذات صلة بالخداع والكذب ، والإكراه والغصب الذى يقع فى مجتمعات لا تلتزم بضوابط الأخلاق ، وأكثر ما يكون ذلك فى مجتمعات ارتقت فى الحضارة المادية ..

وقد تلبس الإباحية ثوب العاطفة زورا ، فيقع الخداع باسم الحب من حيوانات مسعورة لا ترقى إلى أفق العاطفة الرفيع .. وقد يكون الخداع باسم العمل والكسب ، وهو مجال فسيح أحدثته الحضارة الغربية التى ألجأت المرأة إلى العمل وأخرجتها من جنة البيت ومملكته الظليلة ، وحملتها فى بعض الظروف على أن تعرض أنوثتها وتمتهن إنسانيتها لتتفتح لها الأبواب وتنفرج أمامها السبل ، فأصبحت بعض أعمال المرأة مقاتل للعفاف والحياء والخلق .

وتلك بعض آثار فوضى الغريزة التى تزلزل أركان المجتمع وتبث فيه أدواء الشقاء والوهن .

لا تقربوا الزنا :

ومن هنا كان التنفير من فوضى الغريزة والتحذير من شرورها مقصداً من مقاصد الإسلام يحفظ للإنسانية كرامتها ويوفر لها أمنها ويرتقى بها إلى أسمى الآفاق .

يقول سبحانه : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساءِ سبيلا[1] ﴾ .

وهذه الآية تتضمن معانى زاخرة يستخرجها النظر ويستجليها الفكر ، على طريقة القرآن المعجزة التى تجمع المعانى الكثيرة فى اللفظ الوجيز ..

فهى تبدأ بالنهى الجازم الذى يحذر من مجرد الاقتراب فضلا عن الوقوع .. ﴿ ولا تقربوا ﴾ إشارة إلى ما فى هذا الجرم من هلاك محقق وفساد كبير ..

وبعد النهى تأتى الأسباب المقنعة .. ﴿ إنه كان فاحشة ﴾ والفاحشة هى الأمر القبيح الذى تجاوز فى شناعته كل الحدود .. وهى كذلك التى اشتهرت بشاعتها عند الكافة ، فهى موضع اتفاق على قبحها واستنكارها .

---

(١) سورة الإسراء ٣٢ .

«وساء سبيلا» يرضاه لنفسه إنسان ، أو يسلكه عاقل إنه ينتهى بسالكه إلى ضياع مقومات إنسانيته فيتبدد أمنه وينفرط نظام حياته ويشقى من حيث ظن السعادة ويتألم من حيث أراد اللذة .

وساء سبيلا يقره مجتمع أو ترضاه أمة تبتغى مكاناً كريماً فى الحياة ، إذ يجرد المجتمع من العاطفة النبيلة والأخلاق الضرورية لتقدم الحياة ونمائها .

وفى هذا المعنى يأتى الحديث الشريف عن النبى ﷺ .

« اتقوا الزنا فإنّ فيه ستُّ خصال : ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة . فأما التى فى الدنيا : فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر ، وأما التى فى الآخرة : فيوجب السخطة وسوء الحساب والخلود فى النار [1] » وهو إشارة إلى المفاسد الشنيعة التى تنبتها الخطيئة فى نفس صاحبها ، وآثارها المنكرة فى نواحى النشاط والسلوك .

● أما أنه « يذهب البهاء » فتلك حقيقة ملموسة ، وهى أن الخطيئة تحرم صاحبها من صفاء النفس وجمال الروح وتحيله إلى حيوان كدر الإحساس مظلم البصيرة ..

● وأما أنه « يورث الفقر » فذلك لما يضيعه الاشتغال باللذات المحرمة على الفرد وعلى المجتمع من مواهب وطاقات ، إذ يصرف الناس عن الجد فى العمل وعن الإخلاص فى السعى . إلى جانب ما ينفق فى هذا السبيل المردى من أموال وما يصاحبه من مفاسد .

وأما نقصان العمر بسبب الإقبال على الخطيئة فهى إشارة إلى ضياع الصحة وإنهاك البدن متى أقبل الإنسان على هذا المورد الآسن ..

فهى مفاسد خلقية واقتصادية وصحية ملموسة فى كل مجتمع تشيع فيه الخطيئة .

والحديث يشير كذلك إلى سوء العاقبة فى الآخرة، وهو وازع ينشئه الإسلام فى النفوس ، لأن المؤمنين يخافون يوم الحساب ، ومن هنا فلابد لهم من أن يجتنبوا الخطايا لهول عقابها يوم الدين ..

قال تعالى :

﴿ .. ولاَ يزنُون ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهَانا . إلا من تاب .. [2] ﴾

وهو جزاء حق .. لأن الذين يسلكون سبيل الخطيئة إنما يتحدون النظام الذى شرعه الله لعباده ، يتعدون حدود الله التى جعلها فاصلا بين النجاة والهلكة ، مع أن الله سبحانه قد أبْدَ لهم بالحرام الحلال ، وقد أباح له الطيبات وحرم عليهم الخبائث .

---

(١) أخرجه البيهقى .

(٢) سورة الفرقان ٦٨ - ٧٠ .

لذلك وردت الأحاديث التى تمتلىء بأساليب التحذير والوعيد . يقول النبى ﷺ : « إن الزناة تشتعل وجوههم ناراً [1] » .

كعابد وثن :

إن سلوك سبيل الخطيئة يجلب على صاحبه شقاء الدنيا ونكال الآخرة ، وما يزال بصاحبه حتى يخرجه من حظيرة الإيمان ويجرده من خصائص الفطرة ومميزات الإنسانية ، فالأمر مرتبط بحقيقة الإيمان ، فإما الاقتناع والتصديق وإما الاستخفاف والإنكار .

● ولذلك ينزع الرسول ﷺ الإيمان عن المسلم الذى يصر على سلوك مسالك الخطيئة ولا يقلع عنها ، وذلك فى قوله : ﴿ **المقيم على الزنا كعابد وثن** [2] ﴾ .

وقوله : ﴿ **إذا زنا الرجل خرج منه الإيمان فكان عليه كالظلة ، فإذا أقلع رجع إليه الإيمان** [3] ﴾ .

وذلك الإيمان ليس الإقرار بوجود الله سبحانه فحسب ، بل التصديق بالمنهج الذى أقامه الله سبحانه للحياة ، فى جوانبها الفردية والاجتماعية . وإن الذى لا يؤمن بالنظام الخلقى الذى شرعه الله لعباده وميز به مجتمع المؤمنين ، فإنه ينتهى إلى الكفر بعقائد الإسلام لا محالة .

عدوان على المجتمع :

هذا إلى أن فوضى الغريزة عدوان على أمن المجتمع وتهديد لسلامه .. إنها معول يهدم كل قيمة فاضلة ويبدد كل طاقة نافعة .

فليس مع انطلاق الغرائز استقامة ولا أمن ولا اطمئنان .

وعلى كل أمة تقدر حق الإنسانية أن تقاوم تلك الفوضى وتقتلع جذورها من المجتمع ، حتى لا تهون وتفنى .. وهذا معنى تكليف جماعة المؤمنين بسلوك مسالك الاستقامة والعفاف فى قوله سبحانه ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم** ﴾ وقوله : ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فرجهن** [4] ﴾

وقد ميز الله أهل الإيمان بضبط الغريزة وتوجيهها الوجهة الفطرية الصالحة ، وأشار القرآن إلى أن مسلك الفوضى عدوان خطير يدمر المجتمع ويبث الوهن فى أنحائه .. وذلك

---

(١) أخرجه الطبرانى .

(٢) أخرجه الخرائطى وغيره .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى والبيهقى والحاكم واللفظ لأبى داود .

(٤) سورة النور ٣٠ ، ٣١

فى قوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكتْ أيمانهم فإنهم غيرُ ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون [٤] ﴾ .

.. إنهم عادون .. لا يقنعون بالكفاية عن الطريق المباح وهو الزواج الصحيح بمنهجه المستقيم ، بل يتجاوزون ذلك إلى بث العوج والاختلال فى العلاقات ، فيتصورون بخيالهم المريض أن كل الأعراض مباحة لهم ، وأن ذلك أحظى لهم وأجلب للمتعة والسعادة ، وما دروا أنهم يشقون أنفسهم كما يشقون المجتمع كله ، وأن المجتمع البشرى لا يمكن أن يستقيم أمره على فوضى الغرائز التى يتبعها انحلال النفوس واختلال الأوضاع ..

ثمرات الخطيئة :

ولذلك يبين النبى صلى الله عليه وسلم أن سلامة المجتمع المسلم وقوته وتماسكه ، مرهونة بابتعاده عن الفاحشة ونجاته من أوبئتها فيقول :

« لا تزال أمتى بخير متماسك أمرها ما لم يظهر فيهم ولد الزنا[١] » وفى رواية : **« لا تزال أمتى بخير ما لم يَفْشُ فيهم ولد الزنا ، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب [٢] »** .

وتلك حقيقة اجتماعية ملموسة النتائج .. فإن الخطيئة لا تثمر إلا خطايا مضاعفة .. وإن إباحة المجال للغرائز الجامحة لا تكون إلا على حساب أمن المجتمع واستقراره .

وها هو المجتمع الغربى الذى ظهر فيه ولد الزنا يشقى ويزداد شقاء . ففقدت الأسرة روابطها ، وتخلت عن رسالتها فى التربية والتوجيه ..

وإن النذير الصادق فى هذا الحديث الشريف ليحذر الأمة الإسلامية أن تتبع هذا التيار الإباحى المدمر ، ويطالبها بأن تستمسك بعرى الفضيلة ، وتستقيم على منهج الأخلاق الإسلامية التى تفصل بين اتجاه وآخر .. ذلك لأن فوضى الغريزة لا تزال بالمجتمع حتى تهدمه ركنا ركناً ..

انها تهد قواه وتفنى طاقاته ولن تجد فى مثل هذا المجتمع فرداً سوياً يعرف نفسه ويدرك غايته فى الحياة ، فنداء المتعة وإغراء اللذة يشيع التفريط والخيانة ، ويحل عرى الإيمان والاستقامة .

وأعظم خسارة تلحقها فوضى الغريزة فى مجتمع ما ، تصيب الشباب أولا ، وهو دائما معقد الأمل ومناط الرجاء .. وعن هذا الطريق يندفع إلى الجرائم ويتنكب طريق الجد

---

(٤) سورة المؤمنون ٥ - ٧.

(١) أخرجه أبو يعلى .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

والنجاح .. كما أن الأسرة فى المجتمع الفوضوى تتفكك روابطها وتهن قواها فتنصرف عن رسالتها وتخفق فى أداء واجبها ..

وبالجملة .. فإن فوضى الغريزة تشقى المجتمع كله .. فرداً وأسرة وعلاقات وروابط ، وعندئذ يكون عذاب الدنيا أعْجلَ لهذا المجتمع من عذاب الآخرة .

وصدق رسول الله ﷺ : « .. **فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب** » ..

فإذا نظرنا إلى تلك الفوضى فى ذاتها فإننا نرى أن حصاد الخطيئة يدلك على أنها لا تصلح علاجاً للغريزة ولا استجابة سوية لها فهى فى حقيقتها لا تصل بالغريزة إلى القناعة والاكتفاء ، بل تزيدها تلهفا وسعارا ..

وليس هذا ادعاء نظريا ، بل هى الصورة الواقعية الماثلة للعيان ، فى المجتمعات التى تسودها الإباحية والتى ينطلق فيها الناس من كل قيد ويكفرون بكل فضيلة ..

فرغم أن الناس فى المجتمعات المادية قد أهدروا كل المثل الخلقية وانخلعوا من ربقة الحياء وانطلقوا من كل الضوابط التى تنظم حركة الغريزة ، وهبطوا إلى الفوضى المتناهية التى لا تستخفى ولا تستحى ، وأباح بعضهم لبعض حرية العلاقات بلا حدود .. رغم هذا كله لم تقنع الغرائز ولم تسكن ولم تهدأ ، بل زادت طغيانا وسعارا وانطلاقا ولا تزال ..

« لقد ثبت من التجربة أن كثرة الغذاء لا تطفىء الغريزة ، بل تزيدها اشتعالا حتى تصل بها إلى السعار المجنون . وتلك هى النتيجة المنطقية التى تتفق مع الآراء النظرية ، ولكننا سنستمد شواهدها من الحياة الأمريكية .. فلو أن الاطمئنان إلى الإباحية يؤدى إلى تهذيب الغريزة وانطفاء ثورتها الجامحة ما رأينا تلك المظاهر التى لا توجد بهذه الدرجة الفظيعة إلا مع الحرمان الشديد ..

فلم يقل أحد ممن شهدوا الحياة الأمريكية عن قرب وامتزجوا بها ، أن الفتى والفتاة حين يلتقيان هناك ، يلجآن إلى شيء من الغزل الذى تلجأ إليه بعض الحيوانات ذاتها قبل نزوة الأجساد . بل يقولون جميعا انهم يلتقون ، شبانا وشابات ، وفى عيونهم اللهفة الواضحة والنداء المكشوف .

وهذا وحده دليل على أن شيئا من التهذيب لم يلحق هذه الغريزة بالإباحية الكاملة المطلقة . وهم يقولون لك إننا على عجل . ولا وقت لدينا ننفقه فى الغزل .

ففيم هم مُعجلون ؟ وما هذا الشغل الشاغل الذى لا يجد دقائق قليلة يكسب فيها متعة نفسية . إنهم يجرون إلى نواديهم الليلية ليلعبوا الميسر ، أو يشهدوا السينما أو حلقات المصارعة الوحشية .. الخ . وكل هذه كانت تستطيع أن تصبر بضع دقائق لو وجدت الرغبة فى النفوس .

فهى الحيوانية الجامحة التى لم تشبع بالانطلاق المجنون . ولكننا لا نكتفى بهذا الشاهد وهو صريح فى الدلالة على ما نريد . فما تلك الصور العارية التى تملأ السينما والصحف والمجلات والإعلانات والشوارع والمنازل والنوادى؟ وما هذا الإقبال النهم من الفتيان والفتيات على هذه الصور ؟ أنا أفهم أن يُكبّ عليها الشرق «المحروم» كما يزعمون .. ولكن هؤلاء .. ما بالهم ؟ ولماذا ينفقون كل هذا الوقت والجهد فى رؤية تلك الصور .. لا حيث تقابلهم مصادفة فحسب ، بل فى أماكن خاصة يسعون إليها سعيا .. ولماذا تباع منه الأعداد الهائلة لقوم لا يشعرون بلذعة الحرمان ..؟!

« ان الغريزة إذن لم تنطفىء ولم تتهذب ، وانما اشتعل أوارها وزادت لهفة مع الانطلاق المجنون » [1] اهـ .

* * *

من هنا نتبين أن فوضى الغريزة داء اجتماعى وبيل ، لا يبقى معه شىء من الأمن ولا الإيمان .. ولذا بين القرآن نُكرها وكشف طريقها الوبيل ، وحذر من مجرد الاقتراب منه .. فضلا عن سلوكه . لأن فيه دمار الفرد والمجتمع .. وما أوجز وما أحكم ما قاله القرآن الكريم فى هذا التحذير :

﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ .

والفاحشة كلمة معبرة عن الشناعة والسوء أبلغ تعبير .. وتلك حقيقة فى النظر الإنسانى الأصيل ، لا تتبدل على اختلاف الأجيال ..

إجماع على التحريم :

ولذا كان إجماع الأديان السماوية جميعاً على تحريم الخطيئة وكان تشديدها فى عقوبتها .. والعلة فى ذلك الإجماع واضحة ..إذ أن الخطيئة إذا تركت وشأنها اجتثت النظام الاجتماعى للإنسانية من قواعده وأتت على بنيانه ، فإن بقاء النوع الإنسانى واستمرار الحضارة والتقدم مرهون بقيام الأسرة على أساس متين وعلى عهد راسخ وما يتبع ذلك من سعى الإنسان لإسعاد أهله وذريته وما ينشأ عن ذلك من عواطف نبيلة وعلاقات مثمرة ..

وحين نستعرض مواقف الشرائع السماوية من عقوبة الفاحشة نتبين حزم الإسلام فى عقوبته ، وسده باب الخطيئة أمام النزوات المفسدة .. وهو فى هذا الموقف الحاسم يتوخى مصالح الجماعة الإنسانية كما يتوخى مصلحة الفرد نفسه .

---

(١) الانسان بين المادية والإسلام للاستاذ محمد قطب بتصرف .

ولم يفرق الإسلام فى نظرته إلى تلك الجريمة بين أن تكون الخطيئة مع محصنة أو غير محصنة ، ولم يقف هذا الموقف العجيب الذى وقفته بعض الشرائع المحرفة والقوانين المشوبة بالهوى ، حيث فصلت بين الزنا المحض والزنا بزوجة الغير ، فاعتبرت الأول خطيئة يسيرة ، بينما اعتبرت النوع الثانى جريمة تستلزم العقاب .

وقد تأثر اليهود فى تشريعهم بما كان يراه اليونان والرومان ، ومن هنا فلم يذكر الزنا المحض فى التوراة التى بأيدى اليهود إلا على أنه خطيئة كفارتها دفع تعويض إلى والد الفتاة .. فقد جاء فى كتاب الخروج :

«وإذا راود رجل عذراء لم تخطب فاضطجع معها يمهرها لنفسه زوجة ، إن أبى أبوها أن يعطيه أياها يزن له فضة كمهر العذارى » .

وجاء هذا الحكم كذلك فى كتاب الاستثناء بشيء من الاختلاف اللفظى بينما يغلظ التلمود فى العقوبة إذا وقعت الخطيئة مع ابنة رجل من رجال الدين اليهود !

وبهذه النظرة يتضح أن هؤلاء المحرفين لا يستقبحون الفاحشة لذاتها ، ولكنهم يستنكرونها إذا كان فيها عدوان على حق الغير .

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى :

وأما الأحكام الموجودة فى القانون اليهودى عن الزنا بامرأة الغير فهى :

« وإذا اضطجع رجل مع امرأة اضطجاع زرع ، وهى أمةٌ مخطوبة لرجل ولم تفدَ فداء ولا أعطيت حريتها ، ليكن تأديب . ولا يقتلا لأنها لم تعتق[1] » .

«إذا وجد رجل مضطجعا مع امرأة زوجة بعل ، يقتل الاثنان : الرجل المضطجع مع المرأة ، والمرأة » .

« إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل ، فوجدها رجل فى المدينة واضطجع معها ، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ فى المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه ، فتنتزع الشر من وسطك . ولكن إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة فى الحقل ، وأمسكها الرجل واضطجع معها يموت الرجل الذى اضطجع معها وحده . وأما الفتاة فلا تفعل بها شيئاً[2] » .

ولكن علماء اليهود وفقهاءهم وعامتهم كأنهم سدلوا على هذا القانون ستر الإهمال . وألغوه فعلا منذ عصر قبل عصر عيسى بن مريم عليهما السلام ، حتى إننا لانكاد نجد فى تاريخ اليهود كله نظيرا لتنفيذه مع أنهم كانوا يعتقدونه حكما إلهيا وكان مكتوبا عندهم فى التوراة .

---

(١) كتاب التثنية ، الإصحاح الثانى والعشرون ، ٢٢ .

(٢) كتاب التثنية ، الإصحاح الثانى والعشرون ، ٢٢ - ٢٦ .

ولما أن قام عيسى بن مريم عليهما السلام بدعوته إلى الحق ، وجد علماء اليهود أنهم لا قبل لهم بالقيام فى وجه هذه الدعوة ، أطالوا الفكر ومكروا مكرا ، وأخذوا امرأة زانية وساقوها إلى عيسى بن مريم عليهما السلام وقالوا له : اقض لنا فى أمرها . وإنما يقصدون من ذلك أن يحرجوا عليه الموقف ، ويلقوه اما فى البئر أو فى الحفرة .

فهو إن قضى فى أمرها بالرجم صدموه بالقانون الرومى فى جانب ، وقالوا للناس فى الجانب الآخر : هلموا أيها القوم وآمنوا بهذا النبى العجيب الجديد ، وقدموا له ظهوركم ونفوسكم لينفذ فيها شريعة التوراة بكل قوته !

وأما إن قضى فى أمرها بعقوبة غير الرجم ، شوهوا سمعته فى الناس قائلين : كيف لكم أن تؤمنوا بهذا المدعى للنبوة ، وهو يغير شريعة التوراة ويلغيها مراعاة للمصالح الدنيوية .

ولكن عيسى عليه السلام جعل مكرهم السيىء لا يحيق إلا بهم ، إذ قال لهم : «من كان عفيفا منكم فليتقدم ويرمها بالحجارة !

فبمجرد هذه الفقرة انقشع من حوله جموع الفقهاء الكرام ، وانكشف الغطاء عن وجوه الحملة القديسين الأطهار للشريعة الغراء .

ولما وجد المرأة قائمة عليه وجدها بذل لها النصيحة واستتابها وقال لها ارحلى . ذلك لأن عيسى عليه السلام ما كان قاضيا يقضى فى أمرها بصفة رسمية ، ولا كانت هناك حكومة إسلامية تنفذ فيها القانون الإلهى .

وقد استنبط المسيحيون بعض استنباطات خاطئة من هذا الحادث ومن بعض أقوال عيسى المتفرقة الأخرى ، قالها عند مختلف المواقع وجعلوا لهم تصورا جديدا لجريمة الزنا .

فإذا زنى عندهم رجل بكر بامرأة بكر ، فإن فعلهما – على كونه ذنبا – ليس بجريمة مستلزمة للعقوبة على كل حال .

● وأما إذا كان أحد المرتكبين لهذا الفعل – الرجل أو المرأة – أو كلاهما متزوجا فإنه الجريمة ، غير أن الذى يجعله جريمة إنما هو نقض العهد ، لا «الزنا المحض» . فكل من أتى بفعل الزنا بعد كونه متزوجا ، فإنه مجرم لأنه نقض العهد الذى كان عقده مع زوجته – أو زوجها إن كانت المرتكبة امرأة – أمام المذبح بواسطة القسيس . أما عقوبته على إتيانه بهذه الجريمة ، فإنما هى أن تقيم زوجته عليه الدعوى وتشكو غدره إلى المحكمة ، وتطلب منها التفريق بينهما ، وكذلك ليس من حق زوج المرأة الزانية أن يقيم عليها الدعوى فى المحكمة ويطلقها أمامها فحسب ، بل له كذلك أن ينال غرامة مالية من الرجل الذى أفسد زوجته .

● فهذه هى العقوبة التى يقررها القانون المسيحى للزناة المتزوجين والزانيات المتزوجات . ومن العجيب أن هذه العقوبة سيف يقطع من جانبين فإن المرأة وإن كان لها

أن تقيم الدعوى على زوجها العادر وتنال من المحكمة حكم تفريقها منه ، ولكن لا يجوز لها بموجب القانون المسيحى أن تنكح رجلا آخر طوال حياتها . وكذلك الرجل وإن كان له أن يقيم الدعوى على زوجته الغادرة ويتخلص منها أمام المحكمة ، ولكن لا يبيح له القانون المسيحى أن ينكح بعدها امرأة أخرى طول حياته .

ومعنى ذلك أن كل من أحب من الزوجين أن يحيا فى الدنيا حياة الرهبان والراهبات فعليه أن يشكو إلى المحكمة غدر شريكته – أو شريكها – فى الحياة ويطلب منها التفريق بينهما .

إن القوانين الغربية اليوم – وهى التى تتبعها معظم بلاد المسلمين فى هذا الزمان إنما تقوم على هذه التصورات المختلفة . فالزنا فى نظرها وإن كان عيبا أو رذيلة خلقية أو دنبا ، لكنه ليس جريمة على كل حال . والشيء الوحيد الذى يحوله إلى الجريمة ، هو الجبر والإكراه لا غير .

أما القانون الإسلامى ، فإنه على العكس من جميع هذه التصورات ، يقرر الزنا – من حيث هو جريمة مستلزمة للمؤاخذة والعقوبة ، ويغلظ فى نظره شدة هذه الجريمة أن يرتكبها رجل محصن أو امرأة محصنة بالزواج ، لا على أساس أنه نقض العهد أو تعدى على فراش غيره ، ولكن على أساس أنه سلك لقضاء شهوته طريقا غير مشروع ، على كونه متمكنا من قضائها بطريق مشروع .

والنظرة التى بها ينظر القانون الإسلامى إلى فعلة الزنا هى أنه إذا أطلق عنان الناس لإتيانها متى شاءوا ، فإنها لا تلبث أن تستأصل شأفة نوع الإنسان وتمدنه معا . فمما يستلزمه الإبقاء على نوع الإنسان وتمدنه ، أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة محدودة إلى علاقة قابلة للاعتماد عليها حسب القانون . ولا يمكن أن تكون هذه العلاقة محدودة ما دام المجال واسعا معها للعلاقة الحرة ، فإن الناس إذا كان من الميسور لهم أن يقضوا شهواتهم بدون أن يتحملوا أعباء الحياة العائلية وتبعاتها ، لا يمكن أن يرجى منهم بحال أن يرضوا بتحمل هذه الأعباء والتبعات لمجرد قضاء هذه الشهوات نفسها[1] .

عقوبة زاجـــرة :

من هنا كانت العقوبة التى حددها الإسلام للخطيئة كاشفة عن استقباحه لها على كل حال .. سواء تعلق بها حق من حقوق الغير أم لم يتعلق .. ولكنه يفرق فى تلك العقوبة بين حالة الإحصان وهو سبق الزواج الصحيح لمرتكب الفاحشة وعدم الإحصان . فيجعل العقوبة لغير المحصن : أن يجلد مائة جلدة موجعة وسط جمع من المؤمنين ، ثم ينفى عن البلد الذى ارتكب فيه خطيئته ، فيغرب سنة ، إبعاداً له عن الجو الذى استولت عليه فيه وساوس الشيطان .. فربما استرد عفافه وعاد إلى الاستقامة والرشاد .

(١) راجع كتاب تفسير سورة النور للأستاذ أبى الأعلى المودودى من ص ٣٩ -٤٧ .

يقول الله سبحانه : ﴿ **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** ﴾

ونلمس فى هذه الآية استثارة شعور الاستقذار والاستنكار لتلك الجريمة الشنيعة ، فى ربط تنفيذ هذه العقوبة بالإيمان بالله واليوم الآخر : ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ ..

فالإيمان بالله واليوم الآخر يقتضى استقامة على المنهج الخلقى والاجتماعى الذى ارتضاه الله سبحانه للحياة ، والذى جعله كفيلا بتحقيق الحياة الطيبة التى هى جزاء المؤمنين فى الدنيا ..

أما اشتراط شهود طائفة من المؤمنين لهذا العذاب الذى ينزل بالخاطئين : فليكون ذلك إقراراً من المجتمع بأن هذه عقوبة من يغشى ما حرم الله .. وأنه لا استنكار لهذا العذاب ولا رحمة بالخاطئين تحميهم من العقوبة .. بل لا رأفة ولا عذر .. فقد كانت أمامهم سبل الحلال الطيب لو أرادوا ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله** ﴾ . لأن تطبيق هذه العقوبة .. رحمة بالمجتمع كله وأمان من تلوثه كله بأوباء الخطايا وما تشيعه من دمار ..

أما عقوبة التغريب لغير المحصن فقد وردت فى السنة الصحيحة ، فى قوله ﷺ « البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام[1] » .

بل إن الإسلام ليرى عزل من تدنسوا بالخطيئة من الرجال والنساء عن غيرهم من الأعفاء الطاهرين ، فلا يبيح للرجل العفيف أن يتزوج امرأة هوت إلى حمأة الخطيئة .. لأن فى ذلك التحريم حماية له من فساد الأعراض .. فقد كان بالمدينة بغايا مشركات وكانت لهن أموال ، فرغب بعض الفقراء من المهاجرين فى نكاحهن ، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فلم يأذن لهم وذلك حين نزل قوله تعالى : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين[2]** ﴾ .

وتلك عقوبة أخرى ، تضع هؤلاء الخاطئين بعيداً عن حياة المجتمع العفيف ، ليكون ذلك زاجراً آخر عن التدنى إلى هذا العمل القبيح .

وقد جعل الإسلام عقوبة المحصن إذا ارتكب تلك الخطيئة : أن يسلب حق الحياة .. فيقتل قتلة مؤلمة له : رجماً بالحجارة .. وقد وردت تلك العقوبة فى السنة ، من فعل رسول الله ﷺ ، وفعل أصحابه من بعده كما جاء فى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد خلافته وهو على منبر رسول لله ﷺ .

---

(١) رواه الخمسة .

(٢) سورة النور ٣ .

« إن الله قد بعث محمداً بالحق وأنزل عليه الكتاب – فكان مما أنزل آية الرجم . قرأناها ووعيناها وعقلناها ، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده . فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل : ما نجد الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله ، وإن الرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو كان الحبل أو الاعتراف[1] » .

وقد يرى قوم من الذين لا يدركون حكمة الإسلام فى تشريعه أن هذه عقوبة قاسية .. تقضى على الإنسان بالموت جزاء زلة وقع فيها !

ولكن الله سبحانه الخبير بعباده عليم بشأن هذا الإنسان الذى أبيحت له الطيبات ، والذى وجد من الحلال ما يفى بحاجته ، ثم لم يقف عند حدّ الحلال ، بل تعداه إلى الحرام .. لن يقف فى عدوانه عند حدّ ، ولن يقنع من الخطيئة بشىء مهما نال . فلا يزال جرثومة داء تنشر فى المجتمع كله العوج والاختلال .. ولو كان سليم الفطرة لما تجاوز الحلال إلى الحرام ، ولما رأى فى فوضى الغريزة سبيلا يتبع ، بعد أن قال الله سبحانه : ﴿ **إنه كان فاحشةً وساء سبيلا** ﴾ ..

ومن هنا يحسم الإسلام الأمر بالقضاء على هؤلاء المعتدين الذين لا يقنعهم شىء فى أمر الشهوات مهما كان .. ﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ .

إن هذه الغرائز التى انطلقت من عِقال الفضيلة ، وتخلّت عن مبادىء الإيمان لن تدع المجتمع حتى تشقيه كله ، وتسلب منه العفاف والاستقامة .. أفلا يكون من الرحمة تنقيته منها وحمايته من شرورها ؟ .. ثم أليس فى تلك العقوبة الزاجرة ما يدود كلّ من يسولّ له هواه الانفلات من ضوابط الإيمان وأخلاقه .. وهو يعلم أنه إنْ فاتته العقوبة فى الدنيا ، فلن تفوته العقوبة الهائلة يوم القيامة كما جاء فى الحديث النبوى الصحيح : « **فمن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه ، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه** » .

وقد ورد فى العذاب الشديد لغير التائبين فى قوله سبحانه : ﴿ .. **ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعفْ له العذاب يوم القيامة ويخلدْ فيه مهاناً ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً**[2] ﴾ .

* * *

لقد كان الحسْم والزجر فى عقوبة الفوضى فى سلوك الغريزة ، ضرورة اجتماعية ، نُظر فيها إلى مصالح الجماعة ، كما نُظر فيها إلى حماية الفرد ذاته ، وقد كان على الأمة الإسلامية أن تستمسك بشريعتها وأن تتبع نهج الإسلام فى الحفاظ على كيان المجتمع ..

---

(١) رواه الخمسة .

(٢) سورة الفرقان ٦٨ – ٧٠ .

ولكن المؤسف أن كثيراً من البلاد الإسلامية قد نبذت أحكام الشريعة الإسلامية واستبدلت بها قوانين وضعية صادرة عن مبادىء غير إسلامية .

والمقارنة الموضوعية بين عقوبة الزنا فى الشريعة الإسلامية وعقوبتها فى القوانين الوضعية ، تظهر أن الشريعة الإسلامية حكيمة وحاسمة ، لأنها من تقدير الخبير البصير ، المحيط بنوازع الإنسان ، العليم بما يصدر عنه من عمل .. ويتبين ذلك بالآثار الناجمة عن هذه القوانين فى موقفها من العقوبات . ولنسمع رأى عالم بالقانون بصير بآثاره ، يقول : الأستاذ عبد القادر عودة :

«تعاقب الشريعة الإسلامية على الزنا باعتباره ماساً بكيان الجماعة وسلامتها، إذ أنه اعتداء شديد على نظام الأسرة ، والأسرة هى الأساس الذى تقوم عليه الجماعة ، ولأن فى إباحة الزنا إشاعة للفاحشة وهذا يؤدى إلى هدم الأسرة ثم إلى فساد المجتمع وانحلاله ، والشريعة تحرص أشد الحرص على بقاء الجماعة متماسكة قوية .

● أما العقوبة فى القوانين الوضعية فأساسها أن الزنا من الأمور الشخصية التى تمس علاقات الأفراد ولا تمس صالح الجماعة ، فلا معنى للعقوبة عليه ما دام عن تراض ، إلا إذا كان أحد الطرفين زوجا ، ففى هذه الحالة يعاقب على الفعل صيانة لحرمة الزوجية .

● ولعل ما حدث فى أوروبا والبلاد الغربية عامة ، يؤيد نظرية الشريعة ، فقد تحللت الجماعات الأوربية وتصدعت وحدتها وذهبت ريحها ، وما لذلك من سبب إلا شيوع الفاحشة والفساد الخلقى والإباحية التى لا تعرف حداً تنتهى إليه .

وما أشاع الفاحشة وأفسد الأخلاق ونشر الإباحية إلا إباحة الزنا وترك الأفراد لشهواتهم، واعتبار الزنا من الأمور الشخصية التى لا تمس صالح الجماعة .

ولعل أشد ما تواجهه البلاد غير الإسلامية اليوم من أزمات اجتماعية وسياسية يرجع إلى إباحة الفاحشة فقد قلّ النسل فى بعض البلاد قلة ظاهرة تنذر بفناء هذه الدول أو توقف نموها ، وترجع قلة النسل أولا وأخيراً إلى امتناع الكثيرين عن الزواج ، وإلى العقم الذى انتشر بين الأزواج .

ولا يمتنع الرجل عن الزواج إلا لأنه يستطيع أن ينال من المرأة ما يشاء فى غير حاجة إلى الزواج ، ولأنه لا يثق فى أن المرأة ستكون له وحده بعد الزواج ، وقد اعتاد أن يجدها مشاعاً بينه وبين الغير قبل الزواج .

والمرأة التى كانت أمنيتها الأولى الزواج ، ووظيفتها التى خلقت من أجلها إدارة البيت وتربية الأولاد ، هذه المرأة أصبحت فى كثير من الأحوال تنفر من الزواج ، ولا ترضى أن تستأسر لرجل تنال ما عنده ، وتثقل نفسها بالقيود والأغلال .

وقد أدّى شيوع الزنا إلى مقاومة الحمل من جهة ، وانتشار الأمراض السرية من جهة أخرى ، وإذا كانت مقاومة الحمل تؤدى فى كثير من الأحوال إلى عقم النساء ، فإن انتشار الأمراض السرية يؤدى فى الغالب إلى عقم الرجال والنساء على السواء .

وكانت المرأة تعيش فى كنف الرجل فى ظل الزواج ، فلما أضرب الرجال عن الزواج كان لابد للمرأة من أن تعيش ، فاضطرت إلى مزاحمة الرجل فى ميدان العمل لتنال قوتها ، فأدى هذا إلى تفشى البطالة وشيوع المبادىء الهدامة ، وألقى بشعوب أوربا فى بحر لجى يزخر بالفوضى والاضطراب .

ويستطيع الإنسان أن يرتب على هذه المفاسد الاجتماعية نتائجها الخطيرة ، دون أن يخطىء الحساب ، ولو تدبر هذه النتائج القائلوْن بأن الزنا علاقة شخصية لعلموا أن الزنا من أخطر الجرائم الاجتماعية ، وأن مصلحة الجماعة تقتضى تحريمه فى كل الصور ، والمعاقبة عليه أشد العقاب ، وعلى هذا الأساس حرمت الشريعة الإسلامية الزنا لتتجنب الوصول إلى تلك النتائج المخيفة ، وقررت أشد العقوبات للزناة حتى أنها اعتبرت من يزنى بعد إحصانه غير صالح للبقاء ، لأنه مثل سيىء وليس للمثل السيىء فى الشريعة حق البقاء »[1] .

إن الإسلام حين شدد فى عقوبة فوضى الغريزة إنما رمى بذلك إلى دفع خطر يهدد الحياة بالدمار والفناء .

يقول صاحب « الظلال » :

« إنما أراد الإسلام محاربة الحيوانية التى لا تفرق بين جسد وجسد ، أو تهدف إلى إقامة بيت وبناء عش ، وإنشاء حياة مشتركة ، لا تنتهى بانتهاء اللحظة الجسدية الغليظة ! وأن يقيم العلاقات بين الجنسين على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية ، التى تجعل من التقاء جسدين التقاء نفسين وقلبين وروحين ، وبتعبير شامل التقاء إنسانين ، تربط بينهما حياة مشتركة وآمال مشتركة وآلام مشتركة ومستقبل مشترك يلتقى فى الذرية المرتقبة ويتقابل فى الجيل الجديد الذى ينشأ فى العش المشترك ، الذى يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان .

من هنا شدد الإسلام فى عقوبة الزنا بوصفه نكسه حيوانية ، تذهب بكل هذه المعانى وتطيح بكل هذه الأهداف ، وترد الكائن الإنسانى مسخا حيوانيا لا يفرق بين أنثى ، وأنثى ، ولا بين ذكر وذكر مسخا كل همه إرواء جوعه اللحم والدم فى لحظة عابرة . فإن فرّق وميز فليس وراء اللذة بناء فى الحياة ، وليس وراءها عمارة فى الأرض .

---

(١) التشريع الجنائى الإسلامى للأستاذ عبد القادر عودة ص ٣٤٧ . بتصرف .

وليس وراءها نتاج ولا إرادة نتاج ! بل ليس وراءها عاطفة حقيقية راقية ، لأن العاطفة تحمل طابع الاستمرار . وهذا ما يفرقها من الانفعال المنفرد المتقطع الذى يحسبه الكثيرون عاطفة يتغنون بها ، وإنما هى انفعال حيوانى يتزيَّى بزى العاطفة الإنسانية فى بعض الأحيان !

إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها ، إنما ينظمها ويطهرها ، ويرفعها عن المستوى الحيوانى ، ويرقيها حتى تصبح المحور الذى يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية . فأما الزنا – وبخاصة البغاء – فيجرد هذا الميل الفطرى من كل الرفرفات الروحية والأشواق العلوية ، ومن كل الآداب التى تجمعت حول الجنس فى تاريخ البشرية الطويل ويبديه عارياً غليظاً قذراً كما هو فى الحيوان ، بل أشد غلظاً من الحيوان ، ذلك أن كثيراً من أزواج الحيوان والطير تعيش متلازمة ، فى حياة زوجية منظمة ، بعيدة عن الفوضى التى يشيعها الزنا فى بعض بيئات الإنسان[1] » .

والحق أن فوضى الغريزة تستوجب ذلك الازدراءَ كلَّه .. بل أهْوَلَ منه وأشد .. فما من حاجةٍ إليها ، بعد ما أباح الله لعباده العلاقة الطبيعية الطيبة التى تثمر ثمراتها المباركة للفرد وللمجتمع ..

وفى ظل هذه العلاقة المشروعة تستقيم الغريزة ويذهب عنها الإلحاح والعدوان ، وتعرف الطمأنينة والاستقرار ..

ولكن العجيب أن دعوات الفوضى تقلب الموازين وتعكس الأوضاع .. فهى تصور علاقة الزواج المشروع فى صورة بغيضة منفرة ، فتجعله غُلًّا ثقيلا وعبئاً فادحاً ، بينما تزين للناس حياة الإباحية والانطلاق ، فتعرضها فى صورة محببة تتيح للإنسان متاعاً لا يزول !

وبهذه الأفكار المنحرفة .. تنطلق ألوان من الفنون والآداب .. تُغْرى الناس بالتدنّى .. وتردّهم شراً من بعض أجناس الحيوان !!

وهاهى حقائق العلم وتجارب الحياة تثبت النتائج التى لا شك فيها، وتدل على أن إطلاق العنان للغريزة يشقى الإنسان نفسه ويحرمه السعادة والاستقرار ..

وإنها كما وصفها القرآن .. ﴿ فاحشة ﴾ قبيحة مركوز فى الطباع استفظاعها والنكير عليها .. وساء ذلك السبيلُ المظلم طريقاً يسلكه عاقل ، أو يرضاه لنفسه مجتمع يقدر أمانة الحياة .

ألا صدق الله تعالى .. وكذب المفترون الذين يسوءهُم أن يروا البشرية تسير فى طريق الرشاد ..

---

(١) ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب .

ضبط الغريزة وتوجيهها

● إن الإسلام يقر للإنسان حقه فى تلبية الغريزة ، ولا يفرض عليه كبتها ، ولا يوحى إليه باستقذارها والترفع عنها فإن لتلك الغريزة مكانها فى نظام الحياة وفى طبيعة الإنسان .

ولكن هناك طريقاً واحداً للاستجابة للغريزة ، فى نظر الإسلام هو الزواج فى صورته التى ارتضاها الإسلام .

ذلك : لأن فيه على وجه الإجمال : بناء أسرة ، وتنظيم علاقة تنمى الحياة وترق بمشاعر الإنسان وتهذب من طباعه .

ولانه الوسيلة المثلى التى تجد فيها الغريزة ما تنشده من استجابة متوازنة ، لا تخل بطمأنينة المجتمع ، ولا تزعزع بناء الأخلاق فيه .

ولأنه كذلك الحرْثُ الذى تنمو فيه عواطف الخير ومشاعر الإيثار والتضحية ، فى رعاية الجيل الجديد .

* * *

والإسلام يرى أن الفطرة التى فطر الله الناس عليها تقتضى أن يكون لكل رجل سوِىّ زوجة يسكن إليها وتشاركه أعباء حياته .

يقول الله سبحانه :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

ومن هنا فإن المجتمع الإسلامى كله يتحمل تلك المسئولية ، فعليه أن يهىء نظمه بحيث ييسر السبيل لكل من يبتغى بناء أسرة على قواعد الإسلام الفاضلة .

ولهذا يتجه الخطاب فى القرآن إلى جماعة المؤمنين ، فى قوله سبحانه : **﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾** .(١)

وفى قوله سبحانه **﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾** رد على الذين يجعلون من الضيق الاقتصادى ذريعة للدعوة إلى الإعراض عن الزواج ، أو حجة لتبرير التهاون فى الحفاظ على الأخلاق ..

---

(١) سورة النور ٣٢

فحين تصدق العزائم وتخلص النيات فإن الزواج قد يكون باعثاً قوياً على السعى والكدح وابتغاء فضل الله ، وفى ذلك عمران للمجتمع وشد من ازره .

● وهذا الوعد الإلهى حقيقة من حقائق الاجتماع الإنسانى فى نظر المؤمن ، وهى حقيقة يجب أن تستقر فى نظام المجتمع ، كما بين ذلك النبى ﷺ فى قوله :

« ثلاثة حقٌ على الله أن يعينهم ، وذكر منهم : الناكح الذى يريد العفاف[1] » .

●وايّا كان الأمر فيمن يبتغى العفاف بالزواج ، فإن النظر الإسلامى المستقيم يجعل على بيت مال المسلمين ، وعلى المؤسسات الاجتماعية أن تقدم له العون وأن تيسر له سبيل العمل والكسب ، فما تقدمه له اليوم ستجنيه غداً .. فى أسرة صالحة وأفرادٍ مخلصين ..

وقد فطنت إلى تلك الحقيقة فى عصرنا دول أوربية أدركت أن قيام الأسرة عبء يجب ألا يتحمله الفرد وحده ، بل على الدولة أن تعينه عليه ، فجعلت إعانة سنوية تقدمها لكل أسرة تزاد بزيادة أفرادها ..

وذلك هو النظر البصير ، الذى يتلمح الحقيقة الاجتماعية من كل جوانبها ، ولا يدع الأفراد يشقون فى سلوكهم ويشقون المجتمع معهم .

* * *

● إن الإسلام يرى فى الزواج ضرورة للفرد السَّوىّ ، كما هو ضرورة للمجتمع كله إذ يؤدى إلى بناء الأسرة واستمرار الأجيال .

● ولذا يحض الإسلام كل قادر على الزواج ، وييسر أمامه السبيل ، حتى يوصد السبل أمام دعوات الشذوذ والانحراف .

فماذا بعد أن يذكر القرآن أن الزواج هو السلوك الأمثل ، وليس الرهبانية ومقاومة نوازع الفطرة ؟!

وأنه سلوك الأنبياء والمرسلين ، وهم المثل الأعلى للانسانية ، فلا مكان بعد ذلم لمن يحاولون التأبى على طبيعة الإنسان ..

يقول الله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية[2]** ﴾

ومن أولى بالنزوع إلى الكمال وابتغاء الرشاد .. من صفوة خلق الله وأكرم عباده ..؟!

---

(١) أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم .

(٢) سورة الرعد : ٣٨

● وحين ظن بعض الصحابة أن الأولى بهم الانقطاع إلى العبادة والعزوف عن حياة الأسرة والتخفف من أعباء الزواج ، لم يرض لهم ذلك الرسول ﷺ ، وأرشدهم إلى أن مسلك الترهب لا يقربهم إلى الله سبحانه ، ولا يرفع درجاتهم عنده ، وضرب لهم المثل بنفسه ﷺ ، فهو مع شدة خشيته لله وكمال إخلاصه فى عبادته وقربه منه لم يعزف عن الزواج ، ولم يحرم الطيبات على نفسه ، لأن الإسلام دين لا يصادم الحياة ولا يقف فى وجه الفطرة ، بل يستجيب لها ويوائم حاجاتها فى سهولة ويسر .. وذلك هو السلوك الأمثل الذى ينبغى للمسلم أن يحرص عليه .

فقد روى البخارى أن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ اجتمعوا فذكروا أمر العبادة ، فذهبوا يسألون أزواج النبى ﷺ عن عبادته فلما أخبروا بها فكأنهم تقالّوها ، – أى رأوها مقتصدة – فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر !

فقال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا ..

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ..

وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ..

فجاء رسول الله ﷺ فقال : « **أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟!**

أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى[1] .

هذا هو الحق .. لا رهبانية ولا مقاومة للفطرة فى الإسلام ..

وقد استأذن أحد الصحابة رسول الله ﷺ فى التبتل وإماتة دواعى الغريزة فلم يأذن له[2] .

بل كان النبى ﷺ يرغب المسلمين فى تحمل أعباء الأسرة بكل وسائل الترغيب .. وهل هناك أشد ترغيباً فيه من أن يعلم المسلم أن هذا هو طريق الفطرة .. وهو أيضاً هدى السنة .. « **من أحب فطرتى فليستن بسنتى ، وإن من سنتى النكاح**[3] » .

ويكفى المسلم فى ذلك أن يرى القرآن قد وضع نعمة الأسرة موضعها بين نعم الله على عباده .. فجعلها قبل نعمة الرزق من الطيبات ..

« **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات**[4] » .

---

(١) أخرجه البخارى .
(٢) أخرجه الخمسة إلا أبا داود .
(٣) رواه البيهقى .
(٤) سورة النحل ٧٢

إنها نعمة ورحمة .. ووقاية من العنت والشقاء .. ولذلك جعل الرسول ﷺ الزوجة الصالحة خير متاع الدنيا .. وذلك فى قوله : « **الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة**[1] » .

* * *

النظام الأمثـل :

إن الزواج كما يرى الإسلام هو النظام الأمثل الذى يضمن حل مشكلة الغريزة دون إعنات للفرد أو تدمير للمجتمع ..

إنه علاج ناجع يشفى أمراض الغريزة ويريحها من الإلحاح الدائب والنشاط المفسد..

وهذا ما يفهم من تصوير القرآن لتلك العلاقة الطبيعية ، وما فيها من سكن ومودة واطمئنان ..

﴿ نسائكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم[2] ﴾ .

فهنا لا موضع للحظر أو المنع .. ولا مكان للخوف أو الريبة ، ولا شعور بالمخالسة أو الانتهاب .. كما هو الحال فى فوضى العلاقات ..

وقد حاء فى أحكام الإسلام ما يحقق استجابة الزواج لدواعى الغريزة وكفاية مطالبها لكل من الزوجين ..

فمن ناحية الرجل .. يتيح له الإسلام الفرصة ليختار زوجه عن رضا ورغبة وبعد تجاوب واستحسان ومن هنا كانت مشروعية الخطبة .. إذ هى مقدمة للزواج تتيح للزوج فرصة التعرف على شخصية زوجته بأبعادها الشكلية والنفسية قبل الإقدام على الرواج .

ولذا شرع فيها النظر إلى المخطوبة ليرى الخاطب : هل يجد فيها الصورة التى يبتغيها وهل يوحى إليه تمثله لملامحها النفسية والجسمية بالسكن والمودة ؟ حتى لا يقع بعد ذلك النفور والشقاق .

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا خطب أحدكم امرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل** » .

قال جابر : «فخطبت امرأة من بنى سلمة ، فكنت أختبىء لها ، حتى رأيت منها مادعانى إليها[3] » .

● بل كان النبى ﷺ لايرضى عن الـزواج الذى يهمل فيه التحـرى والتعرف على

---

(١) رواه مسلم .
(٢) سورة البقرة ٢٢٣
(٣) أخرجه أبو داود .

خصائص الزوجة وسماتها ، لأن مصير هذا الزواج الغامض غالباً : الفشل فى تحقيق الأهداف النفسية والاجتماعية المقصودة منه ..

فقد خطب المغيرة بن شعبة امرأة فقال له رسول الله ﷺ : «أنظرت إليها ؟ » قال : لا ، قال : «انظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» أى : تثبت علاقة الزواج وتستقر على أساس متين .

كما خطب رجل امرأة من الأنصار فقال له الرسول : أنظرت إليها ؟ قال : لا . قال : «فاذهب فانظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئاً» .

● وليس تشريع الخطبة والنظر إلا لحرص الإسلام على أن يقوم الزواج على أساس متين يحمل عناصر الاستقرار ، ويستجيب للرغائب النفسية والمادية ، فلا يدع مجالا لفساد الغرائز وانحراف السلوك .

● فإذا قام بناء الأسرة بين الزوجين .. فإن من فرائض الإسلام على الزوجة أن تلبى رغائب الفطرة فى نفس زوجها .. وهى فى ذلك تطيع ربها وتبتغى رضاه .

فما أبعد الفرق بين نزوات الفوضى .. وبين طيب الحلال .. الذى يصل إلى درجة العبادة .. ويحاط بالرضا والتكريم .

وهكذا يريد الإسلام للإنسان أن يبتغى فى ظلاله الفطرية المشروعة . فإن تعدى إلى الفسوق والطغيان .. فلا كرامة له ولا أمان .

● أما إذا نشزت الزوجة ولم تستجب لزوجها فإنها تخل بغاية الحياة الزوجية ، وتفتح على الأسرة باب الشقاء والوهن ، وهى حينئذ مريضة تتطلب العلاج والتقويم .

فإن تبين أن ذلك يعود إلى نفور منها أو كراهة ، فلا معنى حينئذ لبقاء العلاقة الزوجية . بل ينصرف كل منهما إلى سبيل آخر **«وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته»** وتفصيل الأحكام فى هذا الموقف فى مواضعها من كتب الفقه .

● بل إن من توجيهات الإسلام للزوجة أن ترى أن واجبها الأول فى حياتها الزوجية أن تهيىء لزوجها الرضا والأمن النفسى ، وألا تشعره بالحرمان مما أباح الله له .

حتى العبادة النافلة .. ينبغى ألا تكون حائلا بينها وبين تحقيق ذلك له ..

ومن هنا لم يبح الإسلام للزوجة أن تصوم صيام تطوع وزوجها مقيم معها إلا بإذنه .. حتى تعلم الزوجة أن إسعادها لزوجها وإعانته على سلوك سبيل الاستقامة والرشاد عبادة وطاعة .. وإسهام فى إصلاح المجتمع واستقامته على أمر الله . ويكفى الزوجة أن ترى تلك الصورة المثالية التى رسمها الحديث الشريف للزوجة الصالحة وفيها يقول الرسول ﷺ :

« **وإن نظر إليها سرَّته** [1] » .

وفى هذه الصورة تتواءم الصفات النفسية مع الصفات الجسدية لتلقى ظلال الرضا والقناعة والاطمئنان .

بل إن من الدقائق التى هدى إليها الإسلام فى توجيهه للأسرة ، أن كره للرجل أن يطرق أهله ليلا إذا كان فى سفر ، أوأن يفاجئهم نهاراً دون إعلام . وعلة ذلك كما جاء فى الحديث الصحيح : « **كى تمتشط الشَّعِثة وتستحدّ المغيبة** [2] **أى تتخذ زينتها وتتهيأ** للقاء زوجها ، فلا يقع نظره منها على مايكره .

وذلك يوضح حرص الإسلام على أن يجد الرجل فى رحاب الزواج ماينشده ويسعده ، ويكف بصره عن التطلع إلى ماحرم الله عليه .

● ومايزال الإسلام يهتف بالمرأة أن واجبها الأول هو إسعاد الزوج وإتاحة الطمأنينة والاستقرار النفسى له حتى يجد فى البيت جنة وارفة الظلال .

ولهذا جاء فى الحديث الشريف ذلك الوعيد للمرأة الناشزة التى لاتمنح زوجها عاطفتها الحانية ، ولاتهيىء له أسباب السعادة فى بيته .

يقول الرسول ﷺ : « **ثلاثة لاترفع صلاتهم فوق رءوسهم** » أى لايتقبلها الله منهم – منهم : « **امرأة باتت وزوجها عليها غضبان** [3] » .

والمراد هنا بالزوج الصالح المستقيم الذى لايتعدى حدود الله ، فإغضابه إنما يكون بظلمه والعدوان على حقوقه .. أما إن كان الزوج فاسقا .. فلا قيمة لغضبه إن كان خارجا عن حدود الشريعة .

ومن الجانب الآخر يبشر الإسلام المرأة الحانية العطوف التى تمنح زوجها أسباب الرضا والسعادة .. فذلك سبيلها إلى نيل رضوان الله والفوز بثوابه .

وفى ذلك يقول النبى صلوات الله وسلامه عليه :

« **أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة** » .

● وتكتمل أسباب الأمن فى الأسرة حين يحمى الإسلام الزوجة من تيارات الفساد والانحراف ، ويجعل تبغيضها فى زوجها وتحريضها عليه جريمة كبرى يستحق مقترفها اللعنة .. حتى تتأكد فى الأسرة أسباب الاستقرار ..

---

(١) أخرجه ابن ماجه

(٢) أخرجه الخمسة .

(٣) أخرجه ابن ماجه عن ابن عباس .

يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« ملعون من خبب امرأة على زوجها » أى أفسد ما بينهما من مودة .

وتلك إشارات وجيزة وراءها تفصيلات وفروع .. وهى واضحة الدلالة على عناية الإسلام بأن يجعل الزواج علاجاً فاجعاً لأدواء الغريزة ، واستجابة كاملة لأشواق النفس ، وإرضاءً صادقا لمشاعرها ..

ولا يرضى الإسلام أن يصير الزواج علاقة شكلية تخفى وراءها المآسى والفواجع .. حين ينطلق الزوجان على هواهما فى المجتمعات المعاصرة التى تجعل الخيانة حقا مشروعا تحت ستار الحرية !

ومن هنا نجد نظرة الإسلام إلى حقوق الزوجة ترعى لها مارعته للزوج من مصالح وتكفل لها ماكفلته للزوج من دعائم الرضا والاستقرار ..

ذلك لأن النساء شقائق الرجال : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » ..

فلقد قرر الإسلام حق الزوجة فى اختيار زوجها .. وجعل مرجع الأمر إلى رضاها ، فلا تُكره .. ولا تجبر على الزواج ممن تكره ..

وذلك واضح فى قول النبى ﷺ :

« لاتنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن (١) » .

وتلك رعاية للتوافق النفسى بين الزوجين ، واقتناع كل منهما بأن حياته مع الآخر تحقق له السكن والطمأنينة ..

فإن وقع الزواج بإكراه الزوجة وإجبارها على القبول فليس بصحيح شرعا . ولا يرضى عنه الإسلام لأنه بناء أقيم على غير أساس ، فلا يلبث أن يهار .

وبإمكان الزوجة المكرهة أو المجبرة أن ترفع الأمر إلى القاضى فيفسخ تلك العلاقة ..

وذلك اقتداء بفعل النبى ﷺ ، إذ جاءته امرأة تشكو إليه أن أباها زوجها وهى كارهة ففسخ الرسول ﷺ زواجها وترك لها الأمر لتختار ..

ومع أنها عادت فاختارت الزوج الذى أكرهها عليه أبوها إلا أنها أرادت بفعلها هذا أن يعلم الآباء أنه ليس لهم إجبار بناتهم على الزواج ممن يكرهن !

وفى ذلك تكريم للمرأة وتقرير لاستقلال شخصيتها ، حماية للأسرة أن تؤسس على وهن فيوشك أن ينهار .

فإذا عُقد الزواج فإن الإسلام يوجب على الرواج أن يرعى حقوق روجته ، وأن

---

(١) رواه الخمسة .

يعلم أنها مثله .. تحمل خصائص النفس البشرية ونوازعها وغرائزها المتوارثة . ومن هنا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « **وإن لأهلك عليك حقًا** » .. ويرى الإمام الغزالى فى الإحياء : أن إحصان الزوجة وإعفافها واجب على الزوج ، إلى جانب الحقوق المادية التى بها قوام الحياة .. ويذكر الغزالى فى ذلك حديثاً نبويا يرشد الزوج إلى التلطف فى علاقته الحسية بزوجته ، وأن يرعى عاطفتها ويعرف السبيل إلى قلبها (١) .

● ولا يحق للزوج أن يهجر فراش زوجه إلا عند نشوزها . وهنا يكون الهجر من أساليب التأديب والتقويم ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا** ﴾ (٢) .

● ويبلغ الإسلام المدى فى رعاية الفطرة ، حين يقرر حق الزوجة فى أن تنفصل عن زوجها إذا شاءت ، حين تعتل قدرتها حتى لايكون فى إكراهها على البقاء معه فى هذه الحال ، دافع لها إلى الانحراف ، أو ظلم لها بمعاناة مشاعر الشقاء . فلا يكره الإسلام المرأة على استبقاء العلاقة فذلك يجافى الفطرة وينقض غاية الزواج ، ولا يطلب منها الكبت أو الأمانة أو خداع النفس . فذلك شىء لايراه الإسلام .

● بل إن الإسلام ليرعى للمرأة هذا الحق فى كل تنظيماته وتشريعاته ، حتى فى حال الجهاد فى سبيل الله ، فلا يباعد بين الزوجين مدة أكثر مما تطيقه الطبيعة النسويّة .

وهذا ماكان يجرى عليه المسلمون فى الفتوحات الإسلامية التى بعدت فيها الشقة وطال الأمد .

روى البيهقى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان يسير فى المدينة ليلا ، فسمع امرأة غاب عنها زوجها المجاهد تتغنى بأبيات تصور شوقها وحنينها ..

فأرسل الخليفة لقواده فى ميادين الجهاد ألا يغيبوا مجاهدا فوق أربعة أشهر !

وهذا هو النظر الصحيح نظر عمر رضى الله عنه إلى بقاء المجتمع الإسلامى متمتعاً بعافيته حريصاً على استقامته ، بعيداً عن الخداع والزور .. فذلك أجدى من تجاهل الحقائق والإغضاء عن العيوب .

إن الإسلام لايرضى بالعلاقات الكاذبة ، أو التى تكون صورة ظاهرة تختفى وراءها الآلام .

لا عدوان :

● ولهذا فقد حرم الإسلام ماكان فى الجاهلية من عدوان على المرأة واستهانة بحقها .. إذ كان الرجل إذا كره امرأته أو أراد أن يؤذيها آلى على نفسه أن يهجرها هجراً

---

(١) الحديث رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس .

(٢) سورة النساء ٣٤ .

دائماً أو طويل الأمد .. وكانوا فى الجاهلية يعدون هذا الإيلاء طلاقا بائناً لارجعة فيه ، فحرم الإسلام هذا العدوان وأبطل حكمه ولم يعده من صيغ الطلاق ، بل يمهل الزوج الذى آلى على نفسه .. أربعة أشهر . فلعل غضبه يسكن . ولعله ينصف زوجه من نفسه . فإن لم يعد يفعل ولم يعد إلى سالف عهده ، فلا سبيل إلا الطلاق ، فإن أبى طلقها عليه القاضى .

وذلك هو الحكم القرآنى الذى جاء فى قوله تعالى :

﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم (١) ﴾ .

وكذلك الحال بالنسبة للظهار ..

فقد كان الرجل فى الجاهلية حين يشتد غضبه على زوجه ويريد أن يقطع مابينهما من علاقة قطعاً باتًا . يحرمها على نفسه : كأن يجعلها فى التحريم كأمه . وكان هذا طلاقا بائناً لايقبل الرجعة .

ولكن القرآن استنكر هذا العبث بالعلاقات . وهذا الكذب فى الدعوى الذى يعصف بكيان الصلة بين الزوجين .. يقول الله سبحانه :

﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ، ماهن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ (٢) .

وهكذا يجب أن يتضح الفرق بين نظرة الجاهلية إلى علاقة الزواج ونظرة الإسلام وبهذا المعنى يوحى قوله تعالى :

﴿ ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله .. ﴾

أما الذين يصرون على النظرة الجاهلية . فهذا هو الكفر بعينه :

﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ .

وهذه الكفارة الواجبة فى حالة الظهار إنما تستهدف زجر أولئك المستخفين بما ينبغى للعلاقة الزوجية من تقدير وتكريم ، بحيث لاتخضع للنزوات ولا تنقطع بالهفوات .. ولا تبت حبلها كلمات ، صدرت عن حماقة وجهالة .

---

(١) سورة البقرة ٢٢٦ ، ٢٢٧

(٢) سورة المجادلة ٢ - ٤ .

فلم يعتبر الإسلام النطق بكلمات الظهار تحريماً للزوجة . بل إما الطلاق الذى يفسح السبيل أمام كل منهما لاستئناف حياته على رشد وبصيرة . وإما العودة إلى العلاقة المشروعة بعد أداء الكفارة الرادعة .

حقا .. إن الإسلام لايقر الأوضاع الشكلية الجامدة فى العلاقة الزوجية ، بل يبتغى لكل من الزوجين الاستقرار العاطفى والمادى .

ليست الأحكام وحدها:

● إن هذه الأحكام ليست هى السبيل الوحيد الذى يعول عليه الإسلام ، ليتحقق بالزواج علاج الغريزة وتلبية أشواق النفس .

ولكن الإسلام على منهجه المطرد فى كل مايعالجه من إصلاح وما يأخذ به البشرية من تهذيب .. يعتمد على الأساس الخلقى والنفسى ، الذى يكفل تحقيق الأحكام وإقامة الحدود الفاصلة .

● فهذه العلاقة لابد أن ترتكز على أساس أعمق وأرسخ ، يرتفع فوق الحق والواجب .. ويكفل الامتزاج النفسى الذى يتطلبه الإسلام ، حتى تسود المودة والرحمة التى جعلها الله آية من آياته فى علاقة الزواج حين تقوم على الفطرة وتجنب الزور .

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ (١) .

وحينئذ يتم هذا الامتزاج روحاً وعاطفة وصورة ومعنى . ولا يبقى لدى واحد منهما فراغ يصرفه إلى غير صاحبه .

● ومن هنا لانرى الزواج كما يراه بعض من عالجوه من زاوية الفقه ، مجرد عقد ومهر ومعاوضة وانتفاع ونفقة .. حتى ليحسبه الناظر عقداً كالبيع والشراء .. لامكان فيه لعاطفة .. ولا نظر فيه إلى مودة أو رحمة .

وعذر الفقيه الذى يتحدث عن عقد الزواج أنه ليس مطالباً إلا ببيان الحق والواجب .. وما يكون عليه العمل فى حال الشقاق والنزاع .. فهو لايرسم صورة مثالية ، وإنما يوضح أحكاماً تمثل الحد الأدنى لما يلتزم به كل من الزوجين فى حال الرضا وحال الغضب .

---

(١) سورة الروم ٢١

أما نحن : فإن علينا أن نجلى الصورة المثلى التى أرادها الإسلام لهذه العلاقة الفطرية .. والتى أراد لها أن تكون غناء عن الفوضى والانحرافات والنزوات .

ذلك لأن أعداء الإسلام .. بل أعداء كل حق وخير فى الوجود .. يفترون على الله الكذب ، ويحاولون إظهار علاقة الزواج فى الإسلام وكأنها علاقة همجية وحشية ، لاترعى للمرأة حقا ولا تقيم لمشاعرها اعتبارا .. بينما تعطى الرجل مايشاء وتعينه على الاستخفاف بالمرأة والعدوان عليها ..

وكذبوا .. وكتموا الحق .. وهم يعلمون ..

وسنرى عند عرضنا لتلك الشبهات فى ختام الباب الثالث من هذا الكتاب أنها جزء من الهجوم الحاقد على الإسلام فى هذا العصر الذى بدأه الغربيون .. ثم تابعهم المرتدون عن الإسلام عقيدة وشريعة .. وإن ادعوه أسماء ومظاهر .

بين الحس والـروح :

ونعود إلى مايبتغيه الإسلام بعلاقة الزواج من تكامل بين الحس والروح ، وما ينوط بها من إسعاد وإصلاح ..

إنه يرغب فى كل مايوثقها ويزيدها تقاربا وامتزاجا .. حتى ليجعل النبى ﷺ لهو الرجل مع امرأته نوعاً من الحق .. إذ أن غايته المحمودة وهدفه الذى يرجوه الإسلام ، وهو تأكيد الارتباط النفسى بين الزوجين .. وذلك فى قوله ﷺ :

« كل مايلهو به الرجل المسلم باطل ، إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، فإنهن من الحق (١) **»** .

وهذا أيضا هو مغزى حث الإسلام على مراعاة التقارب بين الزوجين فى السن .. والتلاؤم بينهما فى ملامح الشخصية ، حتى يمكن أن يكون بينهما السكن والاطمئنان ..

ففى الحديث أن جابر بن عبد الله رضى الله عنه تزوج امرأة ثيبا .. فقال له النبى ﷺ : **« هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك** (٢) **»** .

لولا أن جابر أبدى علة اختياره لهذه المرأة .. وهى وجود إخوة له صغار يحتاجون إلى أم حانية .. لا إلى فتاة لا خبرة لها ولا طاقة برعاية الصغار ..

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذى .
(٢) أخرجة الخمسة .

● إن علينا أن ندرك أن الزواج فى نطر الإسلام ، ليس علاقة تقوم على التقاليد المتوارثة .. بل هو امتزاج بين نفسين .. يرضى كل منهما فى صاحبه نزعاته ويستجيب لحاجاته ولا يدع فى نفسه فراغا للقلق والشقاء ..

وإنا لنجد هذا المعنى وأكثر منه فى تصوير القرآن لحقيقة الصلة بين الزوجين هذا التصوير الملىء بالايحاء فى قوله سبحانه :

﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن (١) ﴾ .

ونترك المجال هنا لصاحب كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » ليحدثنا عن دقائق هذا التصوير الجميل .. فيقول :

« ففى هذه الكلمات القليلة تصوير بارع لعلاقة الجسد وعلاقة الروح فى آن . فاللباس ألصق شىء ببدن الإنسان ، وهو الستر الذى يستتر به ، وهو فى الوقت ذاته مفصل على قده لاينقص ولا يزيد والرجل والمرأة ألصق شىء بعضهما ببعض : يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة . وفى لحظة يذوب كل منهما فى الآخر فلا تعرف لهما حدود . وهما أبدا يهفون إلى هذا الاتصال الوثيق الذى يشبه اتحاد اللباس بلابسه .

ثم هما ستر ، كل واحد للآخر . فهما من الناحية الجسدية ستر وصيانة ، وهما على الدوام ستر روحى ونفسى . فليس أحد أستر لأحد من الزوجين المتآلفين ، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره ، أن ينكشف منها شىء فتنهبه الأفواه والعيون . وهما كذلك وقاية تغنى كلا منهما عن الفاحشة وأعمال السوء ، كما يقى الثوب لابسه من أذى الهاجرة والزمهرير .

وهما بعد ذلك كاللباس فى تفصيله مضبوطاً على القد . يلبسه صاحبه فيستريح إليه ، ويتحرك نشيطاً فى محيطه ، ويكتسب به زينة وجمالا تعجب صاحبها وتعجب الناظرين .

فليس أروع من تصوير هذه المعانى كلها فى تشبيه واحد شامل عميق (٢) .

● وليس بعد هذا الذى عرضناه من منهج الإسلام فى جعل الزواج حلا طيِّعاً ميسوراً ، لمشكلة الغريزة ، شكٌّ فى أن هذا المنهج لو أحسن الأخذ به لكان فيه سعادة الفرد وحماية المجتمع وطمأنينة الحياة .. ولكان فيه القضاء على نزعات الفوضى التى ماتزال تتشقى بها المجتمعات فى أنحاء الشرق والغرب ..

فإن الذى يطالع مواقف المجتمعات المادية المعاصرة يذهله مايراه من مشكلات معقدة حول الغريزة .. فما يزداد الناس انطلاقا .. إلا ازدادوا شقاء .. فقضية الجنس فى هذه المجتمعات تشغل الجميع .. من تلميذات المدارس وتلاميذها .. إلى الكهول .. وذوى الشخصيات اللامعة ..

---

(١) سورة البقرة ١٨٧ .

(٢) الإنسان بين المادية والإسلام للاستاذ محمد قطب ص ٢٥٤

حتى الزواج فى هذه المجتمعات المادية التى يشيع فيها نداء الفتنة قويًّا ملحًّا .. يعجز عن حل مشكلة الغريزة .

وها هى مخازى الغرب المادى تملأ الأنحاء .. وأحدثها نوادى تبادل الزوجات التى شاعت فى أمريكا خاصة .. بل تتزايد يوماً بعد يوم (١) ..

ذلك لأن مجرد إقامة بناء الأسرة لايكفى فى علاج مشكلة الغريزة ، مالم تكن قائمة على دعائم مثل وأخلاق فاضلة ، لاتؤمن بالفوضى ، ولا ترى حلا لمشكلة الغريزة سوى الزواج :

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾

نكـاح المتعـة :

ونحب أن نشير هنا إلى خطر التساهل فى الفتوى والاجتراء على دين الله .. بتحبيذ سلوك مسالك مردية .. تؤدى إلى ثلم جدار الحفاظ على دين الله وتوقير حدوده ..

فليس هناك من نظر فقهى أو اجتماعى إلى القول بإباحة نكاح المتعة بحجة أن فى إباحته تيسيراً على الشباب وإنقاذاً هم من عقدة الشعور بالذنب ومقارفة الخطيئة ..

لقد قالها الفقهاء المعتد بهم من قبل .. ورويت فى الأحاديث الصحيحة .. أن نكاح المتعة حرام . وأن مرتكبه بعد التحريم يستحق الحد . وأنه أبيح فترة ثم حرم . والذى أراه أن إباحته لم تكن بتشريع من الإسلام . أى أنه لم يستحدثه وإنما كان معروفاً عند العرب فى الجاهلية .. فتركه الإسلام على إباحته فترة ثم حرمه .. على نحو تحريم الإسلام للربا والخمر وغير ذلك .. فهو من مفاسد الجاهلية .. وليس من شرائع الإسلام ..

والذين يدعون إلى إباحة نكاح المتعة اليوم ، سواء كانوا من العلماء المتطرفين المسارعين إلى الإباحة .. فى كل شىء .. أو كانوا من أتباع الحضارة الغربية .. الذين يريدون اسماً إسلاميًّا تستتر وراءه المفاسد .. هؤلاء جميعاً يعلمون أن إباحة نكاح المتعة على هذا النحو العجيب . الذى يبيح للرجل أن يتزوج امرأة ساعة ، أو يوما ، أو ليلة تؤدى إلى تسمية الخطيئة بغير اسمها . أو إعطاء الحرام عنواناً من الحلال .

وإلا .. فلن يعجز مرتكب الفاحشة أن يقول : إنه تزوج زواج المتعة .

---

(١) فى كتاب الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر .

(مشكلات الأسرة والتكافل) للدكتور محمد البهى تفاصيل كثيرة عن سلوك الغرب المادى إزاء الغريزة ، استقاها من الصحف والمجلات الأوربية والأمريكية .

فليتق الله أولئك الظرفاء . أو المتظرفون . فى دينهم وأمتهم . وليعلموا أن محاراة الأهواء وتملق الغرائز . مزلق مهلك ينبغى ألا يزل فى هاويته عالِم . ولا مؤمن .

● والآية التى يجادل حولها المجادلون بالباطل فى إباحة نكاح المتعة صريحة لاتحتاج إلى جهد فى إدراك مغزاها .

وهى قوله سبحانه : ﴿ **وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما** ﴾[1] .

وشبهتهم تدور حول كلمة ﴿ فما استمتعتم به منهن ﴾ ويقطعون النظر عما قبل الآية وما بعدها ، فقد سبقت الآية الحديث عن المحرمات من النساء على وجه الجمع ، ثم جاءت هذه الآية تتبين فى مطلعها أن من المحرمات أيضاً المحصنات من النساء ، أى ذوات الأزواج ، وبعد التحريم كان لابد من بيان المباح ، فقال سبحانه ﴿ **وأحل لكم ماوراء ذلكم** ﴾ . والإشارة إلى المحرمات من النساء . ثم بين متعلق الحل . وهو النكاح الشرعى ، الذى عبر عنه بقوله سبحانه : ﴿ **أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين** ﴾ والإشارة هنا إلى الصداق الذى هو ركن من أركان الزواج وهو يميز الزواج الشرعى عن غيره .. فلا عدوان على المرأة ولا إكراه . لأن الأتفاق بين الرجل وولى زوجته على الصداق يعكس الرضاء والقبول فيما وراء ذلك .. ثم أكدت الآية أن المراد هنا النكاح الشرعى القائم على الإيجاب والقبول .. الذى يستهدف السكن .. والذى تتحقق فيه المودة والرحمة ، ودلك قوله سبحانه : ﴿ **محصنين غير مسافحين** ﴾ .. فالسفاح هنا مرفوض . لأنه لون من عدوان الجاهلية .. بل المراد الإحصان . بهذا التعبير الذى يوحى بمقاومة النزوات . واستكمال عدة الفضيلة . حيث يكون الرجل المتزوج وكذلك المرأة . فى حصن من الانحراف والفسوق ..

● **وبعد أن بينت الآيات بهذه الألفاظ الوجيزة منهج الحلال فى الزواج . أكدت وجوب** أداء الصداق إلى المرأة – إذ كان كثير من العرب يسمون المهر ثم لايؤدونه إلى المرأة إلا بعد الدخول . وقد يقع تهاون فى هذا الأداء . بعد أن صارت المرأة فى بيت الزوجية – ولما كان الصداق يمثل الفاصل بين الحلال والحرام . كما يرمز إلى تقدير المرأة وتكريمها . إلى جانب أنه عون لها على استكمال عدتها واتخاذ زينتها فى بيت الزوجية . لذلك نص القرآن على وجوب أداء الصداق للزوجة . وخاصة بعد الدخول . وكأنه قيل للزوج : ها قد وفت لك زوجك بما وجب عليها . وصارت وديعة فى يدك . فلا أقل من أن تؤتيها صداقها . كما فرضته على نفسك. فإن تراضيتما على أن تعفو الزوجة عن بعض حقها لدى الزوج فلا بأس ولا حرج .

---

(١) سورة النساء ٢٤

● فهذه الآية لاتخرج فى معاها عن قوله سبحانه فى السورة نفسها : ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً** ﴾ (١) .

● ذلك هو نظم الآية . أما الآية التالية فإنها تسير فى الاتجاه ذاته . اتجاه الزواج الثابت المستقر . لالقاء المتعة الطارئة . وذلك قوله سبحانه :

﴿ **ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض . فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان . فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم** ﴾ (٢) .

● فماذا ترى فيها . ؟ إن هدا التأكيد على اختيار المؤمنات من الجوارى .. إن لم يكن المسلم قادراً على الزواج من الحرائر المحصنات المؤمنات . وكذلك إبراز عنصر الإيمان بالفضيلة وتقدير حقيقة الزواج. فى قوله ﴿ **محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان** ﴾ وكذلك اشتراط إذن الأهل فى هذا النكاح . إن هذا كله يوضح لنا الأفق العالى الذى تلفتنا إليه الآيات . وليس منها فى شيء فى عقد المتعة . الذى لايستهدف سكناً ولا يوجب حقوقاً . ولا يؤكد مودة ولا رحمة . والذى لااشتراط فيه لإيمان أو إحصان . وإنما هو لقاء عابر . لايسمو عن مهاوى الشهوات .

إن القرآن يبنى المجتمع المسلم على أسس تورث الطمأنينة والأمان . ولا يتيح الفرصة لأتباع الشهوات . ليدمروا فى المجتمع كل بناء للخير والفضيلة . فى سبيل نزواتهم الفاجرة وغرائزهم المريضة ..

● وإننا لنجد بعد هاتين الآيتين اللتين بينتا مايحل للمسلم فى زواجه وما يجب عليه فيه قوله سبحانه :

● ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما** ﴾ .

فهذا هو الجو الإسلامى الصحيح . بطهارته ونقائه ، وارتفاعه بالنفس الإنسانية . لايتدنى مع الغرائز الملتوية ، ولا يساير الأهواء الجامحة .

فكيف يكون حال المجتمع الإسلامى المعاصر إذا شاع فيه القول بإباحة نكاح المتعة . وأنه كما يقول بعض الشيوخ : ينقذ شابا الذى يعيش فى الغرب ويحل مشكلاته !!

---

(١) سورة النساء ٤

(٢) سورة النساء ٢٥

إن شبابنا الذى يعيش فى الغرب يعلم أكثر من هؤلاء المفتين بالهوى أن المجتمع الغربى لايحل مشكلته تجاه الغريزة شيء . ولا إباحة الفاحشة نفسها دون قيد ، إذ أنها فى المجتمعات المادية مباحة للراغبين . ورغم هذا فلا هدوء ولا اكتفاء ولا استقرار . لأن تلك طبيعة الغرائز التى تنفلت من عقالها . والتى لايرجع بها الإنسان إلى قيد ولا ضابط . من خلق أو دين أو قانون .

فليوفر أولئك المفتون على أنفسهم مشقة البيان . وشقشقة اللسان . وليعلموا أن الأمة تنتظر منهم غير ذلك . وهى قد جربت طريق الانطلاق . فما زادها إلا وبالا .

ليس ، إذن ، إلا الزواج .. فى صورته المثلى .. بضوابطه وقيوده .. ونظمه وأحكامه التى شرعها الإسلام .. حلا لمشكلة الغريزة الجامحة .. مشروطاً بأن يضعه المجتمع موضعه الحق .. وأن يكفل لنظام الأسرة المهابة والاحترام .. ويحميه من الآفات وينقى المجتمع من الموبقات المهلكات ..



هَل الأسْــرَةُ ضَــرُورةَ ؟

يتصل بموضوع تنظيم الغريزة فى إطار الزواج ، إثبات حاجة الإنسان الفطرية للأسرة ، ضرورة نفسية له ، تعلو فوق صلة الحس وإجابة الغريزة ..

ذلك لأن الحضارة المادية توشك أن تجنى على نظام الأسرة جناية كبرى ، تقطع روابطها وتوهن قواعدها ، وتحرم الإنسان من عواطفها الأصيلة التى تصلح الكيان البشرى وتحقق التوازن فى نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى المجتمع ..

والخطر يتبدى فى سلوك المجتمعات المادية إزاء الأسرة . وفى النظريات التى يشيعها بعض الدارسين لعلم الاجتماع المادى من أن الأسرة إنما هى وضع اجتماعى لاطبيعى ، وأنها ككل نظام اجتماعى تخضع للمؤثرات الاجتماعية ، فتنمو أو تضعف ، وما دام هذا النظام من وضع المجتمع الإنسانى فهو رهن بمشيئته .. فيبقيه أو يزيله .. إن أراد ..

وذلك كله فى سبيل تبرير مسالك الخطيئة ، التى تنتج أطفالا فيلقيهم المجتمع المادى بقسوته إلى المحاضن والملاجىء ، حيث ينشأون فى صورة أحط من نشأة الحيوان .

ويجادل الماديون .. فيزعمون أن لاضرورة للأسرة ، وأن نشأة الطفل فى محضن صناعى تساوى نشأته بين أبويه .. بل يزيدون فيتحدثون عن التلقيح الصناعى . وعن إمكان صنع الأطفال .. بعيداً عن الأسرة وأعبائها الثقال ! بل إن النظام الماركسى يحبذ نشأة الأطفال جميعاً شرعيين وغير شرعيين فى المحاضن الجماعية .. حتى لايكون لهم ولاء نحو آبائهم وأمهاتهم وأسرهم .. فلا يذكرون إلا الدولة والحزب .. «ومن أجل ذلك يحبذ « أنجلز » الرجل الثانى للماركسية الزواج الجماعى ، ويدعو إلى إلى تقويض القيود التى فرضتها الأديان فى علاقة الرجل بالمرأة[1] » .

● هذا إلى مافرضته النظم الاقتصادية فى الحضارة المادية .. من غياب الأم عن أطفها .. واعتمادها على المحاضن أو الخدم فى رعاية الأطفال والقيام عليهم ..

ولكن الفطرة الإنسانية لاتقبل الزور .. بل لابد أن تفضح الأنظمة المخادعة التى تحاول أن تغير خلق الله وأن تشقى البشرية من حيث توهمها السعادة ..

---

(١) الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر : مشكلات الأسرة والتكافل ص ١٣٣ للدكتور محمد البهى

فها هى الأوضاع الأليمة للأسرة فى المجتمعات المادية المناوئة لدين الله الحنيف ، تشهد بما أصاب الناشئة من انحراف فى السلوك ، نتيجة لما طرأ على الأسرة من تغيير ، يحول بينها وبين القيام بواجباتها العتيدة ..

فتيار الجريمة فى الدول المتحضرة التى لاترعى الأسرة يزداد بصورة خطيرة رغم الازدهار المادى والتقدم الصناعى ..

ونسبة الأطفال غير الشرعيين تزداد يوماً بعد يوم وتمثل مشكلة اجتماعية مستعصية إلى جانب النماذج البشرية الشائهة التى تمتلىء بالحقد على المجتمع والعداء للإنسانية .

فماذا على البشرية لو سارت فى الطريق المأمون .. وتنكبت هذه المخاطر التى تكاد تهوى بها إلى الحضيض ..

ماذا عليها لو اتبعت المنهج الإلهى الحكيم ، ونعمت بتلك الحياة الآمنة .. حياة الأسرة التى جربتها أجيال عديدة .. عاشت آمنة مطمئنة ..

● لاتقف فوضى الغريزة عند حد إذا ترك لها المجال واتسع المدى .. وهى لاترعى لفطرة الحياة ولا لضرورات الاجتماع الإنسانى حرمة ..

فهى هوى مستبد يستخف بكل المعانى والقيم التى جاهد الإنسان فى سبيل تحقيقها فى حياته أمداً طويلا ..

وها نحن أمام قضية أخرى تتفرع عن المقارنة بين آثار تنظيم الغريزة وتقييدها بقيود الدين الصحيح التى تتفق مع العقل والحكمة ، وبين إطلاق العنان للغرائز الجامحة تسلك أى سبيل تراه ..

تلك هى قضية ضرورة الأسرة للإنسان ، بما فيها من معنويات وأشواق روحية ترتفع على صلة الحس وعلاقة المنفعة .

فمن العجيب أن دعاة الانفلات من قيود الزواج ، وأنصار شيوعية العلاقات الغريزية لايقنعون بالتدنى إلى هذه الهاوية المردية للإنسان ، وإنما يبتغون أن يحملوا الإنسانية جميعاً على اتباع هذا السبيل ، الذى يزعمون أنه يمثل التطور الإنسانى ويناسب التقدم والتحضر .

ولما رأى هؤلاء أن فوضى الغريزة تعنى عدم بناء الأسرة والإخلال بروابطها الأصيلة التى عرفها الإنسان فى كل الأجيال .. قالوا : وما المانع ؟ فلتهدم الأسرة ولتحل روابطها . إذ هى نظام اجتماعى ، وليست غريزة فطرية فى نفس الإنسان ..

وحينئذ يستبدلون بنظام الأسرة المحاضن والملاجىء لتربية الأطفال ، ثم ينطلق كل رجل وكل امرأة اتباعا للهوى الجامح دون قيد ولا خطر ..

والحق أن نظام الأسرة يعتمد على نزعة فطرية فى نفس الإنسان ، فوق الطعام والشراب وصلة الغريزة ، وفوق المنفعة والحاجة .. فلا يمكن التخلى عن هذه النزعة الفطرية مهما أصاب الإنسان من متعة وما كفل له من رعاية بعيداً عن ظلال الأسرة .

● ونثبت هنا كلمة للأستاذ العقاد فى بيان أن الأسرة نزعة فطرة وليست نظام اجتماع يقول فيها :

« إن أمرين اثنين تختلف فيهما النظم العائلية ماتختلف بين الشعوب والأجيال ، وهما ماثلان فى كل أسرة وفى كل شعب وفى كل جيل ، وهما حضانة الطفل ، والألفة الحمية بين فئة من الأقرباء .

وكلا هذين الأمرين قائم على الغريزة الفطرية دون سواها ، على نحو متشابه فى جميع الأجناس وجميع العصور .

فمن الخصائص الفطرية فى الإنسان أنه طويل الحضانة لأطفاله . وهذه ضرورة لازمة لادخل فيها للمجتمعات ، ولا لقوانين الاجتماع .

ومن هذه الخصائص أنه يحتاج إلى الألفة الحميمة بينه وبين فرد آخر أوأكثر من الأفراد ، أيا كانت حالة الاجتماع ، من القبيلة البدائية إلى جامعة اللغات والعناصر والأديان . وكل أسرة وجدت بين الناس فهى محاولة مستمرة لتحقيق هذين الغرضين الغريزيين ، ولولاهما لما كان هذا الإصرار على حلق الأسرة ومحاولة تحسينها وتنظيمها فى كل مكان .

وما هو الأثر الذى يترتب على إلغاء الأسرة بأنواعها المعروفة بين الأجيال البشرية .

إن أول الآثار التى تشاهد فى هده الحالة ، أن الناس يخلقون الأسرة بما يشبهها وينوب عنها ، فلا يكفيهم مجرد الاجتماع فى مكان واحد ، ولا يغنيهم أنهم يشتركون فى المأكل والمشرب ، مئات وألوفاً ، كما يحدث فى الجيوش والأديرة والمدارس الداخلية ، ولكنهم يخلقون حنان الأسرة ورعاية الأبوة والأمومة خلقاً يعلمون أنه مصطنع ولا يستغنون عنه مع علمهم أنه اصطناع .. فتظهر أسماء التحبيب والتصغير فى الجنود ، ويتسمون بأسماء « تونى وجونى » كأنهم أطفال صغار ! وتظهر الحيوانات الداجنة التى يعطف عليها المعسكر كما يعطف على أبناء البيت وتظهر أمومة الكنيسة وأحضان المدرسة وأخوة الدير ، وأشباه هذه القرابات ، وهى شيء غير ألفة الاجتماع بين الناس ، بمعزل عن هده القرابات « العائلية » التى يخلقها المجتمعون معها حتى لو وحدت لكل فرد علاقته العائلية بنويه وإذا فقد الإنسان هذا الشعور الحميم ، لم يكن قصارى الأمر عنده أنه يعانى « النقص الاجتماعى » فى أخلاقه القومية أو أخلاقه الإنسانية ، بل كان من جراء ذلك أنه يعانى نقصاً « بيولوجيّا » يؤثر فى الغريزة والعقل ، ويدل على أن المسألة فى أصولها مسألة الحياة ، ومسألة الأوضاع والأنظمة والقوانين .

● ومن الصفات المشتركة بين جميع الشعوب والأجيال ، أنها قيد للعلاقات الجنسية ملحوظ فيه مصير النسل على نحو من الأنحاء ..

فكل أسرة هى ضابط للنسل ، وليست وحدة من وحدات البنية الاجتماعية الكبيرة وكفى .

ولا عجب فى اختلاف الضوابط والقيود ، بل العجب كل العجب أن تتفق كل الاتفاق من المحاولة الأولى إلى المحاولة الأخيرة . فإن ذلك لهو المستحيل الذى لايخطر على البال ، فضلا عن انتظاره وتعليق الاعتراف بالغريزة فى تكوين الأسرة عليه..

● ولا نقول إن هذا الضابط مقصود لغاية من الغايات أو غير مقصود ، ولكننا نقرر المشاهد حين نقول إن منع الزواج من المحارم قد أفضى بالنوع الإنسانى إلى ثروة شعورية . لم يكن ليطمع فيها بغير هذه الوسيلة فكأنما يتجه النوع الإنسانى من قديم الزمن إلى « تخليص » الشعور وتنويعه فى العلاقة بين الأقربين والبعداء ، فلا يشعر الرجل بالمرأة الأخت أو الأم كما يشعر بالمرأة الزوج أو المرشحة للزواج ، ولا تزال هناك ضروب من العطف بين الأقربين ، لاتقتصر على ضرب واحد ، ولا تتشابه فيها الأواصر والصلات .

ومعنى ذلك أن الإنسان يحرص على أنواع كثيرة من القرابة العائلية ، ولا يريد أن يخلصها بعلاقات المجتمع الذى لا قرابة فيه .

● إن أواصر القرابة تختلف بين الأمم والأجيال فتشمل فى أمة ماتستثنيه فى أمة أخرى ، وتنكر فى هذا الجيل ماتعترف به فى ذاك .

ولكن هل يقع هذا الاختلاف لو لم يكن فى طبيعة الإنسان استعداد للشعور بالقرابة أيا كان عنوان القريب ؟

وهل أنكر الإنسان قط قرابة من القرابات إلا ليعترف بقرابة تعْدلها أو تنوب عنها ؟

وهل أنكر ماأنكره طويلا دون أن يعود إليه ؟

● فالغريزة وراء الظواهر الاجتماعية فى جميع هذه الأحوال . والفطرة الإنسانية أحوج فطرة بين الأحياء إلى النشأة فى أسرة والاتصال بقرابة عائلية .

ويغلو فى القول كل من يرجع بكل ظاهرة من ظواهر الأسرة إلى الاجتماع لأن الناس يعيشون جماعات جماعات .

فإن انتساب الفرد إلى أمة لايغنيه عن النشأة العائلية بحال من الأحوال .

ولو جاء الوقت الذى تهدم فيه الأسرة وتلغى فيه الأمومة والأبوة لتحل فى محلها « تربية المجتمع » لكان ذلك تبديلا فى الخلق ، ولم يكن تبديلا فى « النشأة الاجتماعية » وكفى . لأن الفطرة قد عودت الأحياء أن يخدم الفرد نوعه وهو يشعر بأنه يخدم نفسه ، لفرط مايخالجه من اللذة والسرور بإنجاب الذرية .

فماذا لو قيل غدا إن اللذة الجنسية ليست أصلا فى دوام النوع ، وإن الحمل قد يتم بغير هذه اللذة التى يشعر بها الآباء والأمهات .

إن من يقول بذلك لن يكون فى مقاله أعرب ممن يزعم أن المجتمع ينشىء الأطفال بغير حضانة الأمهات والآباء ، وأن الفطرة تستقيم على هذه التنشئة لأنها وضع أوضاع الاجتماع ! » (١) .

وذلك حق .. فقد نشأت الأسرة قبل نشأة المجتمع بصورته المعروفة . ومحاولات التجمع نشأت على أساس عمل الغريزة ومطالبها .

غاية الأمر أن المجتمع قد استطاع – بعد قيامه على أساس الأسرة – أن يضع لها بعض القيود التى تنظم علاقاتها أو تحدد وظائفها ، وهذا العمل : « عمل من البداهه بمكان ، ولن يلجئنا توكيده إلى الفصل بينه وبين الغرائز الفطرية فهى لن تنفصل عن وضع من الأوضاع المتواترة بين الناس » (٢) .

ذلك من الوجهة النظرية .

فإذا نظرنا إلى الواقع الملموس ألفينا الأسرة ضرورة للفرد لايعوضه عنها شيء . وتبين لنا خطأ القول بأنها نظام اجتماعى لايحتاج إليه الفرد ...

وللنظر نظرة علمية هادئة إلى فرد فى أسرة ، وفرد بلا أسرة . لنرى أيهما أكثر هدوءاً واطمئنانا فى آخر الشوط .

إن الفتى والفتاة اللذين أطلقا من قيود الأخلاق ووجدا كفايتهما الاقتصادية ليبدوان فى سعادة عامرة ومتعة لاحد لها ، وهما ينطلقان كالحيوان الهائج ، يشبعان نزوات الجسد حيثما شاءا وشاءت لهما الأهواء .. ولكن هذه السعادة الظاهرة لاتلبث أن تتكشف عن قلق نفسى شديد .

فإن التكالب الشديد على اللذة ينتهى إلى سعار دائم لايرتوى ولا يشعر صاحبه بالراحة . لأن الذئب المسعور لايلتذ بكل نهشة ينهشها من هنا أو هناك ، وهو هائم كالمجنون ، ولو كانت من أشهى طعام يحبه ، كما يلتذ المخلوق السوى بالقدر المعقول ، الذى يحصل عليه وهو هادىء مستقر الأعصاب .

وهذا التكالب المسعور سمة دائمة من سمات الهيام الذى يقع فيه الفرد حين لايصيخ السمع إلى دافع الأسرة ، فينطلق مع الشهوات بلا ضابط ولا حدود .

والأسرة هى الرقية الطبيعة التى تحمى الفرد من هذا السعار .

فهى أولا تكسر من حدة الشهوة المجنونة ، لأن الإنسان يزهد بفطرته من كل شيء يملكه !

---

(١) الأستاذ عباس محمود العقاد مجلة الرسالة العدد ٦١٧ أبريل سنة ١٩٤٥ بتصرف .
(٢) المصدر السابق .

فإذا اطمأن الزوج والزوجة بعد فترة التعطش الأولى إلى أن كل منهما يملك الآخر فى كل لحظة يريدها ، لم يعد هناك دافع إلى التشهى العنيف والسعار الملهوف .

ولكن هذا ليس معناه أن تموت الرغبة وتتبلد نهائيا بالزواج ، فلحكمة عليا جعلت هذه الغريزة من الحدة والعنف بحيث لاتخمد مادامت المقدرة الصحية للفرد صالحة لأداء الغرض المطلوب ، وذلك لكى يستمر النسل ، وتستمر الحياة على ظهر الأرض ، لايوقفها شبع الارتواء ، ولا زهادة الزاهدين . فمن ناحية الغريزة ذاتها تجد الأسرة هى المنظم الطبيعى لانطلاق الشهوة ، بالصورة التى تمنع دمار الجسد وعذاب اللهفة الدائمة ، وتمنح الفرد السوى فى الوقت ذاته نصيباً معقولا من المتعة ينتهى به إلى الرضاء والارتواء .

ولكن الأسرة لاترضى جانب الجسد وحده .

فهذا الفتى الهائم والفتاة الهائمة لاينعمان بالسعادة النفسية كذلك .

إن الرجل فى حاجة إلى المرأة والمرأة فى حاجة إلى الرجل ، لشىء آخر غير ضرورة الجسد ودفعة الغريزة .

إن كلا منهما ليجد عند الآخر وفى رحابه مشاعر نفسية . الألفة والحنان والود والتعاطف .

مشاعر لا يجدها فى أى مكان آخر . لا يجدها الرجل – كاملة – عند الرجل ، ولا المرأة عند المرأة إلا فى حالات الشذوذ .

وهذه المشاعر كلها لا تستقيم مع الطفرات الهائمة والتيارات المتحولة لأنها بطبيعتها فى حاجة إلى الزمن والاستقرار . كيف ينشأ الود بين عابرىْ سبيل قد لا يلتقيان بعد ذلك أبداً ؟ وكيف تنشأ الألفة بين شخصين لا يلتقيان إلا كما تلتقى القطر المتقابلة على مسارهما الحديدى ، دقائق ، ثم يمضى كل منهما إلى سبيله ؟

كلا ! إن هذه المشاعر اللطيفة ، النابعة من أعماق النفس ، لاتجد منطلقها إلا فى جو هادىء مستقر ، وتظل – إذا لم تتحقق – تسبب جوعة نفسية دائمة ، وحنينا لاهفاً لايستقر ، ولو وجد الإنسان كل متعة الجسد وكل الغنى المادى .

إن كل فرد من أحد الجنسين فى حاجة إلى فرد من الجنس الآخر يلقى إليه نفسه كلها ، مشاعرها وأفكارها . ويكشف له عن كل أسراره الدفينة . ويتجاوب معه ويتعاطف ويجد منه حافزاً وعوناً لمواجهة الحياة وتبعاتها المختلفة . وإن الدنيا كلها لتتفتح لقلبين متحابين متآلفين ، ولا تتفتح لقلب واحد محروم من الحب والعطف ، مقطوع عن الألفة الندية ولو كان أكبر قلب لأعظم إنسان . بل هو لن يكون قلباً كبيراً وهو محروم من هذا الغذاء الروحى الشفيف .

تلك وقائع قد يفتنّ الشعر فى تصويرها فى عالم المثل والأحلام . ولكنها ، بغير شعر ، ولا فن وقائع «علمية» تشهد بصحتها الحياة كلها منذ فجرها إلى اليوم .

فالاستقرار العاطفى إذن حاجة نفسية للرحل والمرأة ، ولا يغنى عنها كل متعة الحسد وكل حرية الاقتصاد ، وهو لايتحقق فى هذا التيار الحارف الذى يسير فيه الغرب المجنون . لأنه لايتحقق إلا فى أسرة وبيت . وهم يقضون حياتهم فى الشارع . مشردى النفوس ، حائرى القلوب ، حتى المتزوجون منهم لايصلون إلى الاستقرار المنشود .

على أن الأسرة المستقرة ليست حاجة نفسية للرجل والمرأة فحسب ، فهى كذلك ضرورة لازمة لإقامة الكيان النفسى للأطفال على أساس قويم .

ونبدأ بتقرير حقيقة ثابتة وهى أن إنجاب الأطفال شهوة لم ينج منها أحد فى القديم أو الحديث .

وما دام الإنسان يحب إنجاب الأطفال فعليه إذن أن يهىء لهم البيئة الصالحة للتربية والنماء . ولا أقل من ذلك . فالحيوان ذاته لايترك أطفاله لأنفسهم حتى يطمئن إلى قدرتهم الكاملة على الاستقلال .

وقد تحدثت « أنّا فرويد » فى كتابها « أطفال بلا أسر » عن الخلل النفسى الذى يلازم تربية الأطفال فى الملاجىء والمحاضن ، وما ينتج عنه من اضطربات عاطفية وانحرافات شاذة ، لايملك العلم النفسانى أن يقومها إلا بجهد جهيد . هذا إذا استطاع » (١) .

* * *

والقرآن يشير إلى هذه المعانى حين يصوّر المشاعر التى تنشؤها الأسرة وتشيع فيها ، من الود والرحمة والعطف والاستقرار حين يقول : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ وكل ماعرفه الناس من معانى الأسرة وجدواها للفرد إن هو إلا بعض التفكر الذى دعا الله الناس إليه فى هذه الآية ، وكلما تقدم بالناس الزمن ورسخ فيهم العلم والفكر عرفوا من هذه الآية نوراً باهراً وشعاعاً هادياً .

كما يشير القرآن إلى نعمة الذرية التى لا تتحقق إلا فى الأسرة وجوها الظليل حين يقول:

﴿ **والله جَعَل لكم مِنْ أنفسكم أزواجاً ، وجَعَل لكم مِنْ أزواجكم بنينَ وحفدةً** ﴾ (١) .

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام .

(٢) سورة النحل ٧٢ .

فالزواج هو الوضع الطبيعى للإنسان . أما السماح والبعاء مليس معه نسل ولا درية . والأسرة هى المستقر الآمن الدى ينمى الحياة ويصل حلقات الأجيال . ويقى المجتمع شر الأطفال غير الشرعيين ، كما يقى الطفولة شر الحرمان والضياع وهى مشكلة تزداد تعقداً فى المجتمعات المتحضرة مادياً اليوم حتى ليعلن فى ولاية أمريكية واحدة أن أكثر من خمسة عشر ألفاً من الأطفال اللقطاء يحتاجون إلى الغوث والكفالة .

وهذه الأثار البشعة جناية فظيعة تنشئها النزوات وتسببها الخطايا على أجيال المستقبل حيث لا تتاح لهم فرص الحياة الآمنة الوادعة فى ظل من الرعاية والحب .

وتلقى آيات كثيرة فى القرآن ظلالا ندية ، حين تتحدث عن غريزة الأبوة وغريزة الأمومة التى ترضى فى الإنسان نزعته للخلود ورغبته فى بقاء الذكر ودوام الأثر ..

﴿ ذكرُ رحمة ربِّك عبده زكريًا ، إذْ نادَى ربَّهُ نداء خفياً . قال رب إنّى وهن العظمُ منى واشتعل الرأسُ شيباً ، ولم أكن بدعائك ربِّ شقيا ، وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً ، فهب لى من لدنك وليّا ، يرثُنى ويرثُ منْ آل يعقوب واجعلهُ ربِّ رضيا ، يازكريا إنا نبشِّرك بغلامٍ اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا ﴾ [١] .

فهذا الاعتناء بأمر النسل وهذه الشفافية فى التعبير عن الرغبة فيه .. كل ذلك يلقى فى النفس مشاعر جميلة ترغبها فى الطمأنينة والاستقرار .

* * *

على أن أصواتاً قد ترتفع وتشير إلى مايسود الأسرة فى بعض المجتمعات من تفكك وشقاء ..

ولكن المسئول عن ذلك ليس هو نظام الأسرة ولا روابطها ، وإنما هى دعوات الفوضى والإباحية ، التى تعلق بصر كل من الزوجين بغير صاحبه ، وتخرج الزوجة من الأسرة لتمارس غير مهنتها وتقوم بغير واجبها ، فتحرم البيت من عطره ونداوته وظله ، وتحيله إلى فندق للمبيت لاحنان فيه ولا سعادة !

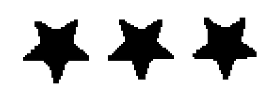
والإسلام حين رغب فى الزواج ودعا إلى إنشاء الأسرة ، لم يهمل التشريعات والنظم التى تكفل للأسرة إرضاء نزعات الإنسان جميعاً والاستجابة لمطالبه .

فليست المسألة مجرد اسم أسرة وكفى .. بل المدار على وفاء هذه الأسرة بمطالب الرجل والمرأة ، وقيامها بوظائفها التى تكفل لهما الطمأنينة والأمان .

---

(١) مريم : ٣ - ٧ .

والنظرة الإسلامية للأسرة ليست أجزاء وتفاريق نأخذ منها مانشاء وندع مانشاء ، بل هى متكاملة ولابد أن تؤخذ أيضاً على تكاملها ، وحينئذ تفى بالمطالب وتكفل للفرد والمجتمع السعادة والاستقرار (١) .



(١) يراجع كتاب الأسرة فى الإسلام - الطبعة الثانية للمؤلف .

مـــاذا يفعَــل الشَــبَابُ ؟

ليس فى وسع إنسان يحترم العقل ويدرك خصائص الإنسانية أن يزعم أن مسلك الإباحة والفوضى فى إجابة الغريزة جدير بالاتباع .

ولم يعد – بعد ماعرضناه – من حفاء فى أن مسالك الفوضى خسار وشقاء للفرد والمجتمع ، وأن الحل الفطرى المشروع هو الزواج فى صورته الإسلامية القويمة .

● ومن الجهالة والبهتان مايدعيه الماديون من أن الزواج نظام قديم لم يعد يصلح لحل مشكلات الإنسان الغريزية والعاطفية .

فتلك قولة زور لايملك المتشدقون بها دليلا عليها . لامن عقولهم ولا من أوضاع حياتهم التى تموج بالشقاء..

● وسيبقى نظام الأسرة القديم هو الحل الأمثل الذى يوائم رغائب الفطرة ، ويتفق مع كرامة الإنسان ، ويحقق له الرضاء والسعادة والاستقرار ..

● ولا ينتهى بنا الأمر عند إثبات هذه الحقيقة ، بل إن علينا أن ننظر فى مشكلة الشباب المسلم الذى يقتنع بهذه الحقيقة .. ولكنه لا يستطيع أن يستشفى بهذا الأخذ بها . إذ هناك الملايين من الشباب فى بلاد الإسلام ممن يطلبون العلم لايتيسر لهم الزواج ، تبعاً للأوضاع الاجتماعية السائدة .

والموقف المعاصر من هذه المشكلة فى بلاد الإسلام : هو موقف التقليد لأوضاع المجتمع الغربى .. فقد كان شبابنا المسلم فى الأجيال المسلمة الزاهرة لايواجه تلك المشكلة ، فما كان طلب العلم حائلا بين الفتى والزواج .. وكانت أوضاع المجتمع الإسلامى مستقيمة على أمر الإسلام ، فكان الزواج أمراً ميسوراً يحتفى به المجتمع ويحيطه بالعون والتقدير ..

أما اليوم .. فإن الأوضاع الاجتماعية فى العالم الإسلامى قد تأثرت كثيراً بالحضارة الغربية .. بفعل التقليد والتأثير المقصود .. فحين رأينا شباب الغرب يبقون دون زواج حتى الانتهاء من الدراسة . قلدناه فى ذلك غير ناظرين إلى تأثير ذلك على الشباب وعلى المجتمع كله .. وغير ناظرين إلى الفروق الجوهرية بين الشباب المسلم الملتزم بعقيدته وأخلاقه والشباب الغربى المنطلق فى سلوكه دون حدود ..

ومن هنا فإن دعاة الحضارة الغربية يهولون تلك المشكلة ويخرجونها من إطارها الخلقى ليجعلوها مسألة من مسائل الاقتصاد أو وضعاً مادياً من أوضاع المجتمع .

إن علاجهم لتلك المشكلة نابع من فكر مادى مخادع ، لايستقيم له مبدأ ولا يرتبط

بحقيقة مشهود لها بالثبات ..

والحل عند هؤلاء ، كما تبدّى من أقلامهم وألسنتهم فى كلمتين :

الاختلاط وإباحة البغاء ..

ولابد لنا من النظر فى هذه الآراء ، على مافيها من زيف واضح حتى لايخدع الشباب بمنطقها الكاذب ودعاواها البراقة ..

الاختــلاط :

يرى بعض من يؤمنون بتجارب الغرب المادى ويثقون بنتائجها ، أن الاختلاط بين الفتيان والفتيات فى مراحل التعليم ، وفى أوجه النشاط المختلفة فى الحياة ، من شأنه أن يهذب الغريزة ويخفف من حدتها ، فيخفت نداؤها ويهدأ إلحاحها على الشباب .

وهذا الرأى – بداهة – مخالف للأوضاع الاجتماعية الإسلامية التى أعلنها القرآن وجاءت بها السنة رغم مايحاوله بعض المزورين من اصطناع الفتاوى وتكلف الاجتهادات فى تسويغ الاختلاط بين الجنسين ، فذلك منهم تلاعب بالنصوص واحتيال على الكلمات لايوافقهم عليه أحد ممن يعتد بقولهم من علماء هذه الأمة قديماً أو حديثاً ..

وليس هذا موضوعنا الآن ، فنحن نبدأ من القاعدة المسلم بها وهى أن الإسلام لايبيح هذا الاختلاط على هذا المنهج الذى تطبقه المجتمعات الغربية ، ويريده لنا من يتبعون الغرب شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع !!

ونقول : إن هذا الاختلاط الذى يجهد الكثيرون أنفسهم فى الدعوة إليه وجعله قاعدة عامة فى المجتمع الإسلامى المعاصر ، قد فقد صلاحيته فى الغرب ، ولم يعد له جدوى فى هذا التهذيب المزعوم الذى يحلم به الحالمون بل لقد أصبح هذا الاختلاط نبعاً للأدواء الخلقية التى يعانى منها الغرب ، كما يعانى منها الشرق المقلد السائر وراء الرّكاب !

ولم يعد هناك فى الغرب من يزعم هذا الزعم الخادع .. بل أصبح الأمر مكشوفا بلاغطاء .. وأصبح الاختلاط المهذب إباحية ظاهرة بلا حياء ..

يقول الأستاذ محمد قطب فى كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » .

« لقد كان هذا الاختلاط البرىء أسطورة ضخمة طلع بها الغرب فى بدء انحلاله ليعالج بها الكبت الجنسى . وراح علماء النفس والاجتماع يهولون فى فائدتها المطبقة وخيرها العميم ..

ثم عاد الغرب فكفر بها ، ولم يعد اليوم يجرى ذكرها على لسانه بعد أن تكشفت عن نتيجتها الطبيعية المحتومة .

فأما علماء وأطباء الأعصاب فقد نكلوا عن رأيهم السابق فى هذا الاختلاط الشفوى .

بما فيه الرقص على أنغام الموسيقى وحفلات الشاى « البريئة » والنزهات الخلوية « تحت رقابة الوالدين أو إشراف المدرسين » .

فهم يقولون اليوم : إن كل اختلاط من شأنه أن يهيج مشاعر الغريزة لاأن يخمدها .

فإذا كانت هذه المشاعر تسكُت أو تسكت ، بحكم ظروف الاجتماع التى لاتمكن من التنفيذ العملى ، أو بحكم الحياء من الظهور أمام الموجودين والموجودات بمظهر الجائع المتعطش ، أو لأى سبب آخر ، فإن هذا على أى حال يحدث لونا من القلق النفسى والعصبى ، بعد الهدوء المؤقت الذى قد تحدثه الاجتماعات المختلطة .

وعندئذ يحدث أحد أمرين : فإما أن يلجأ الشاب إلى مكان آخر لاتقوم حوله الحواجز ، أو يظل فى قلقه المفسد للأعصاب .

فأى براءة وأى تهذيب ؟!

إن الواقع يثبت أن دعوى البراءة والصداقة بين الجنسين باطلة يملؤها الخداع والزيف ..

بل زاد بعض الأطباء أن قالوا : إن الاستمرار على هذا الحال ، أى الإثارة الدائمة قد يؤدى عند الشباب إلى ضعف جسمى عصبى ، بالإضافة إلى اللهفة النفسية الدائمة .

وهكذا انكشفت حكاية « التهذيب الجنسى بالاختلاط البرىء » عن وهم كبير !

فما قيمة أن تتهذب مع واحدة بعينها ، لتنطلق مع أخرى كالحيوان ، أو تظل دائماً فى لهفة وهيام ، وما قيمة أن تكون الفتاة التى تهذبك اليوم وتتهذب بك فريسة لفتى آخر قد « تهذب » من قبل ..

إنها أضحوكة أو ستار رقيق جداً يكشف عن المغالطة التى تستتر وراءه .

وعلى أى حال فقد كفر الغرب بها ، ولم يعد يزعم أن الاختلاط البرىء أمر ممكن التنفيذ ، لقد ألقى القناع ، وأعلن فى صراحة حمقاء ، أنه قد أباح لفتيانه وفتياته أن يفعلوا مايشاءون بلا حياء !

فما بال هذا الشرق المسكين يتشبّث بهذه الأساطير ؟؟

وفى أى مكان على ظهر الأرض يوجداليوم – أو وجد قبل اليوم – اختلاط برىء ، حتى يدعو إليه هنا الكتاب والمؤلفون ؟

ألا فليملأ الكتاب الفارغون اسطواناتهم بطبعة جديدة فقد بطلت الطبعة الأولى ، وأصبحت غير ذات موضوع !

ولقد كان الإسلام أشد بصراً بالطبيعة البشرية ، وأدرى بإمكانياتها ومساربها الخفية ، حين منع هذا الاختلاط ، وهو يعلم أنه لن يظل بريئاً قيد خطوات[1] » .

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام للأستاذ محمد قطب . بتصرف .

● وها هو واقع الاختلاط فى المجتمعات المعاصرة يشهد بأنه داء لا دواء .. وأنه لا دخل له فى تهدئة الغريزة وتخفيف حدتها ، بل إنه على عكس ذلك ، يثيرها ويمهد لها الطرق ، ولن تغنى عنا شيئاً كلمات البراءة والتهذيب ، والنفاق الذى يخفى وراءه الأهوال ..

وها هى الجامعات فى البلاد العربية الإسلامية التى تقلد الغرب فى الاختلاط بين الطلاب والطالبات ، تشهد بأوضاعها المضطربة على كذب دعوى البراءة والتهذيب وراء الاختلاط ، بل إن أزياء الكثرة من الطالبات ليست أزياء علم ولا براءة ، بل هى أزياء فتنة واستثارة ، مما يدل على المثل والأفكار التى تغشى هذه البيئة ..

● والثابت أن أكثر دعاة هذا الاختلاط فى مجتمعنا الإسلامى المعاصر لم يكونوا فوق الشبهات فى أخلاقهم وسلوكهم .. وبعضهم كان يعيش عزباً لا زوج له ولا ولد ، مع ذلك كانوا يلحون فى تحقيق أوضاع الاختلاط وتعميمه ، لأنه لا شيء لديهم يخافون عليه ، وهم يريدون أن يعم الفساد ، حتى يتوهوا فى الغمار ..

وها هى بعض البلاد العربية التى تسير وفق النظام الغربى ، والتى ينطلق فيها الناس على أهوائهم ، تعانى فى هذه الأيام من موجة اختطاف الفتيات ، مع شيوع الاختلاط فى الجماعات والنوادى والمواخير .. ولكن شيئاً من ذلك لم يصب الغرائز بتهذيب ولا تأديب ..

والتجربة هى التى تفضح كل دعوى وتكشف كل بهتان ..

فليس هناك جدوى من أن نخادع أنفسنا بكلمات فقدت قيمتها وتجردت من كل حقيقة ..

وصدق الخبير البصير :

﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ (١) .

تلك هى الفطرة الإنسانية الأصيلة التى لا تعرف الزور والنفاق وذلك هو الوضع الذى يصلح عليه أمر الإنسان فى كل زمان ومكان ..

ونعجب أشد العجب لما كتبه بعض الشيوخ (٢) الذين اشتهروا بالحرص على التلفيق بين الأوضاع الغربية السائدة وبين الإسلام فى إحدى المجلات ، يرد على من احتج عليه بهذه الآية ، فقال الشيخ إن هذه الآية خاصة بأمهات المؤمنين ..

---

(١) سورة الأحزاب ٥٣ .

(٢) مجلة العربى عدد ديسمبر ١٩٧٢ . الشيخ الباقورى .

وكأن القرآن حين يخاطب النبى ﷺ بقوله :

﴿ **يأيها النبى اتق الله** ﴾ يخصه بذلك الأمر ، ويعفى منه سائر المؤمنين ..

وها هو القرآن يجمع فى أمر واحد بين نساء النبى وبناته ونساء المؤمنين جميعاً ، فيقول سبحانه :

﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين** ﴾ مما يدل على أن القرآن قد جعل نساء النبى ﷺ مثلا أعلى للمؤمنات جميعاً .

ولا خصوصية لهن إلا فى حرمة نكاحهن .

لكن الجدل بالباطل واتباع الأهواء ، مع قدرة البيان ، يصبح للناس فتنة !

إباحـــة البغـــاء

أما هذه الدعوة الخاطئة فما كان لنا أن نجعلها موضعاً للمناقشة ، لولا أن بعض من حملوا الأقلام فى أيام سود ، أعلنوها على الناس ، وألحوا بها ، وما زال بعض هؤلاء يعيشون بيننا ، وقد حاول بعضهم أن يغسل قلمه من هذا الدنس وبعضهم حاول أن يعتذر بأنه كان مدفوعاً أو مأجوراً ..

● ولما كانت هذه الهاوية موجودة فى الغرب المادى الذى يتخذه البعض مثلا أعلى فى نمط الحياة . بل كتب الدكتور أحمد زكى أخيراً فى مجلة العربى [1] يعدد نعم الغرب علينا ، ويرى أن من العقوق أن نحاول اختيار نهج آخر لحياتنا غير نهج الغرب مادامت ملابسنا ومرافق حياتنا ووسائل متعتنا كلها من الغرب ، سواء كانت بأيدى أبنائه أو من وحى حضارته !

● لذلك فإن علينا أن نصبر – على مضض – مناقشة هذه الفكـرة الحقيـرة . ليهلـك من هلك عن بينـــة ..

ونبدأ بمناقشة الأساس الذى تقوم عليه هذه الدعوة فنرى أنها تحاول علاج مشكلة باصطناع عشرات من المشكلات المعقدة .

---

(١) ديسمبر ١٩٧٢

فالمفروض فى أى مجتمع إنسانى متحضر أنه يرى لكل فرد فيه من القيمة والحقوق قدراً مستوياً ..

فأى طبقة من النساء يريد هؤلاء أن يخصوها بهذا اللون من الحياة المهينة ، وأى مجتمع ذلك الذى يجعل من بعض نسائه مسوخاً شائهة تفقد كل قيمة للإنسانية وكل فرصة للحياة المتوازنة ..

أو يليق بمجتمع إنسانى أن يتخذ من الحاجة إلى القوت وسيلة يهدر بها إنسانية الإنسان ، ويهوى بها إلى درك لاتعرفه أجناس الحيوان ؟!

إنه إذن مجتمع خبيث العلاقات ، لايؤمن بالمساواة ، ولا يرضى فيه الناس لغيرهم مايرضونه لأنفسهم .. ولا يغنى عنهم بعد ذلك ادعاء الحضارة أو التشدق بالشعارات الجوفاء للتقدم والتطور .. إن الجاهليات القديمة قد تنزهت عن هذا الدنس ، ونظرت إليه نظرة ازدراء فى جملة الأمر .. إذ كان مما يمدح به العرب أن أحدهم لا يرخى لمظلمة يزاره ؟؟ أى لا يدخل بيتاً من بيوت البغاء !

● ولكن جاهلية الحضارة المادية رضيت لمجتمعاتها وصمة البغاء ، واستهانت بكل القيم والمعانى الإنسانية ، فى سبيل إرضاء نزوات الحيوانية الجامحة ، بل هى كما قلنا مما يتنزه عنه الحيوان !

وسواء فى التدنى المجتمعات التى بلغت قمة الحضارة .. والتى تعيش ظلمات التخلف .. فما دامت الجاهلية تغشى الأبصار فلا فرق فى الاتجاه ..

فهذه صورة من صور عديدة مما يزحم المجتمعات المادية من فساد والتى يريد دعاة الضلالة أن يكونوا بها مجتمعات الإسلام :

نشرت صحيفة « نيوز أوف ذى ورلد » الإنجليزية بتاريخ ١٩٦٥/٨/١م تصف بيتاً من بيوت البغاء فى ألمانيا مايلى[١] :

« خلف جسر السكة الحديدية المحاذى لمحطة دوسلدورف بألمانيا أقيمت إحدى العمارات الشاهقة ، التى تعد أعظم مافى أوربا ، إن لم يكن فى العالم كله » !

لا يوجد خارجها أطفال يلعبون ويضحكون فى صعودهم أو نزولهم ، ولا يوجد بداخلها كذلك سيدات يحملن همومهن ومشاكلهن اليومية !

« وبدلا من ذلك : يمتلىء البهو الأمامى للعمارة بالرجال طوال الأربع والعشرين ساعة يومياً ، ومحاذيات للنوافذ الفسيحة يجلس نساء .. » .

---

(١) نقلا عن كتاب الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر مشكلات الأسرة والتكافل للدكتور محمد البهى .

« والعمارة من النماذج الخاصة للمحاولات الأخيرة التى تقوم بها المدن فى ألمانيا الغربية كلها لحل مشكلة المعاشرة غير الشرعية . وبالاختصار .. هذه العمارة الضخمة « نزل » لبنات الشارع ، وهى معروفة بين السكان المحليين : « مصنع الجنس » وبين الجنود البريطانيين المعسكرين هناك باسم « حوش العصافير » وعدد سكانها مئتان . والأكثرية الغالبة بينهن من الألمانيات ، والأقلية تشكلها فرنسيات ، مع بعض الملونات . ولكى لايتعرض البهو الأمامى للعمارة وما يجرى فيها من نشاط لنظر المارة .. مدت ستارة من « البلاستيك » روعيت فيها الدقة الألمانية المعروفة ، تحجب هذا النشاط ، وكذلك مايقرب من مائة رجل .. من جميع الأنواع بينهم رجل الأعمال الثرى ، ومنهم الشيخ والشاب ، وقد كان أحد الشيوخ هناك ويبلغ من العمر سبعة وستين عاماً !

« وفى هذا البهو تمر الفتيات فى عرض أمامهم . تحت مظلات تبعث المتعة وتقيهن رذاذ المطر المتساقط فى البهو» ..

«وقد كان هذا المنظر منظراً آثماً يشبه سوق الرقيق ، تحت سماء ملبدة بالغيوم ومستمرة فى ارسال رذاذ المطر» .

«وظلت الفتيات فى عرض أنفسهن على الرجال ، ذلك العرض الممزق للإنسانية ...» .

وتحدث مراسل هذه الصحيفة مع رئيس المؤسسة «الدكتور ! ويبر» وهو من أنصار فكرتها المتحمسين لها .. فذكر أسباب هذه التجربة ونتائجها فيما يلى :

«إن الأمر وصل بنا مرة أن وجدنا هنا مايقرب من أربعة آلاف ! من النساء يعرضن أنفسهن فى شوارع «دوسلدورف» ولم يكن جميعاً محترفات ، بل كان بينهن طالبات فى الجامعات ، وزوجات لهن رغبة فى تكسب المال !» .

«وكادت الأمور تخرج من التحكم فيها ، وكذلك لم يكن من الممكن للسيدات المحترمات أن يسرن فى الشوارع وهن فى مأمن من الظن السيء والتصور الخاطيء .. وكاد أمر المرور يصير إلى التوقف .. إلى أن اعترضت إحدى صاحبات النوادى الليلية فكرة بناء عمارة كمنزل للفتيات ، ووافقت عليها السلطات المختصة» .

والشيء الذى يشغل البال فى تلك المدن ، ويثير الاختلاف بين السلطات والمحكمة الإدارية العليا هناك : هو ضريبة الدخل التى تقرر عليهن :

- أتدخل فى باب الخدمات ؟ !
- أم فى باب تجارة الأشياء الأنيقة !!» آ. هـ.

هؤلاء هم الذين يزرون على تعدد الزوجات فى الإسلام !!

ويطعنون فى تاريخنا الإسلامى بأنه تاريخ جوار ومجون !!

وهذه حضارتهم التى تمتهن فى الإنسان أكرم مافيه ..
وتجعل من المرأة سلعة تباع وتشترى ، وتسلبها الكرامة والاحترام .

* * *

فليس مما يليق بكرامة المجتمع الإنسانى أن يقر البغاء بأى دافع كان ..

إن كان بدافع القوت .. فليس ذلك من الرحمة أو العدل .. إذ هو إذلال للإنسانية وامتهان للعواطف والمشاعر .. وإن كان بدافع الجموح والنزوة فهو عدوان لابد أن يقاوم قبل أن يفسد على الناس حياتهم ، كما بينا ذلك فى فصل « فوضى الغريزة » .

وعلى كل .. فلن يحل البغاء مشكلة الشباب .. بل إنه يزيدها تعقيداً وفساداً ..

إن الأثر النفسى الذى يتخلف عن هذه الخطيئة فى نفوس الشباب أشد خطراً عليهم من الكبت والحرمان ..

فهناك عاهات خلقية تصيب الشباب الذى يألف هذه البيئات العفنة ، ويرى مافيها من علاقات خبيثة ومآسى تهدر كل قيمة للإنسان ..

كيف ينظر الرجلُ الخاطىء إلى البغى ؟

وكيف تنظر هى إليه ؟

وأى صلة نفسية بينهما ؟

إن كلا منهما يحتقر الآخر ويستقذره ، ولكنه يكبت هذا الشعور المهين ، وفى البيئات الأوروبية العفنة تشبه بيوت البغاء دورات المياه ، يقصدها حيوانات البشر على عجل ، حيث تمتهن إنسانية المرأة ، ويموت فيها كل شعور بالكرامة والحياة ..

« وساء سبيلا » .. نرضاه لشبابنا .. أن نقضى فى النفوس على الحياء ونظافة الشعور وبراءة الإحساس ، وأن نهبط بهم إلى هذا الحضيض فى المشاعر والسلوك ..

إن الشباب الذى تصيبه تلك اللوثة لايستقيم له أمر ، ولا يصلح لأداء واجب ، أو حمل مسئولية ، فى مجتمع ذى قيم ومبادىء ، كمجتمع الإسلام ..

وإلى جانب العاهات النفسية التى يخلقها البغاء للرجال والنساء على السواء فإنه يخلف العلل البدنية والأمراض الخبيثة التى يعرف الطب آثارها المدمرة فى الصحة الفردية والاجتماعية .

فالبغاء فى حقيقته تلويث شامل للفرد والمجتمع ، وإشاعة للفاحشة وتوسيع لنطاقها ، وإذابة لأخلاق المجتمع ودعائمه ، وهدم للعدالة الاجتماعية وقضاء على فرص الحياة الكريمة .

ولهذا حرمه الإسلام ، وطهر منه مجتمعه منذ قام .

وقد كان البغاء معروفاً فى الجاهلية فى صور متعددة ..

فمن ذلك : « .. كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها زوجها حتى يتبين حملها ، فإذا تبين أصابها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد .. ! »

هذا لون من فوضى الجاهلية . قضى عليه الإسلام ..

وكان منه أيضاً لون آخر :

« .. يجتمع الرهط مادون العشرة ، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال ، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم قد عرفتم ماكان من أمركم ، فقد ولدت ، فهو ابنك يافلان ؛ تسمى من أحبت باسمه ، فيلحق له ولدها لايستطيع أن يمتنع منه الرجل »

ولون آخر من البغاء فى ظلام الجاهلية ..

« .. يجتمع ناس كثير فيدخلون على المرأة لاتمتنع ممن جاءها ، وهن البغايا ، ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن » .

ثم تقول عائشة رضى الله عنها :

« فلما بعث محمد ﷺ بالحق ، هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم » (١) وهو الزواج المستقر على دعائمه المثلى التى أقامها الإسلام .

فكيف يريد قوم أن يرجعوا بالمجتمع المسلم إلى ظلام الجاهلية العمياء ! ولا يستحون من هذا الخزى الذى يشيع فى أقلامهم ويبدو من فلتات ألسنتهم .

إنهم حقاً كما قال الله سبحانه :

﴿ يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾ (٢) .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) سورة النساء ٤٤ .

رأى الإســــلام

إن النظرة الإسلامية لمشكلة الشباب نظرة صادقة واقعية .. لاتتجاهل الحقائق ولا تعرف الزيف والخداع . بل تتناول المشكلة تناولا دقيقا ، وتقدم لها علاجا يتناسب مع ظروف كل مجتمع وإمكانياته .

يرى الإسلام – كما قدمنا – أن الحل الأقوم لمشكلة الغريزة هو الزواج . فهو العلاج الذى يقضى على المشكلة تماما ، ويريح المجتمع من الانحراف والعبث فى المحاولات غير المشروعة للتنفيس عن الكبت والخروج من دائرة الحرمان .

ولذلك يتجه الخطاب فى القرآن إلى الجماعة المسلمة أن تيسر الزواج للأيامى وتعينهم عليه .

﴿ وأنكِحُوا الأيامَى مِنكُم والصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكمْ وإمَائِكمْ ﴾[1]

والأيم : من لازوج له من الرجال أو النساء .

ولكن الأوضاع الاقتصادية قد تبدو عائقا دون ذلك ، والفقر ظاهرة لايخلو منها مجتمع ..

وهنا يدعونا الإسلام إلى الثقة فى فضل الله ، فهو سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وما دام الشاب يقدم على الزواج ابتغاء العفة واستجابة لأمر الله فسوف يعينه الله ويغنيه ..

﴿ إنْ يكونُوا فقراء يُغنهم اللهُ مِنْ فضله ﴾ ..

وليس هذا تواكلا أو عجزا ، ولكنه عامل نفسى قوى يدفع للنجاح والإنتاج .. وحين تهدأ أعصاب الفتى وتخف عنه وطأة الغريزة وإلحاحها ، فإن ذلك يتيح له التفوق والنبوغ فى كل الميادين . وحين يشعر بالمسئولية التى حملها ينصرف عن الإهمال والعبث ، ويأخذ أهبته للقيام بأعبائه والوفاء بما التزم به ..

ومن هنا يعد الزواج المبكر بابا من أبواب الرجولة والكفاح ، لايتخلف عنه التوفيق

---

(١) سورة النور ٣٢

والنجاح ، ولذلك اعتبره الرسول ﷺ سبيلا للميسرة والغنى حين قال لما نزل قوله تعالى : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ .. اطلبوا الغنى فى هذه الآية [١] .

فإن لم يستطع الشاب بظروفه الخاصة الإقدام على الزواج - فعلى المجتمع أن يعينه عليه وييسر له الأمر - فالخطاب فى قوله تعالى :

﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم** ﴾ متجه إلى الجماعة المسلمة وإلى أولى الأمر خاصة ، ويضيف الإسلام إلى هذا توجيه المسلمين إلى تيسير مطالب الزواج وتهوين تكاليفه .. فالصداق ينبغى ألا يكون عبئا ثقيلا ينوء به الراغبون فى إعفاف أنفسهم ، بل هو فى نظر الإسلام رمز يتمثل فى أى شيء له قيمة مهما بلغت من القلة ..

وقد خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :

«ألا لا تغالوا بصداق النساء ، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله ، كان أولاكم بها النبى ﷺ . ما أصدق رسول الله امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من ثنتى عشرة أوقية ! » [٢] .

وقد طلب رجل من النبى ﷺ أن يزوجه امرأة ، فقال له النبى : هل عندك من شيء ؟ .

قال : لا والله يارسول الله !

قال : اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا ؟ . فذهب ثم رجع فقال : لا والله يارسول الله ماوجدت شيئا .

قال : انظر ولو خاتما من حديد ! .

فذهب ثم رجع فقال : لا والله يارسول الله ولا خاتما من حديد !! ولكن هذا إزارى فلها نصفه !

فقال رسول الله : ماتصنع بإزارك ! إن لبسته لم يكن عليها منه شيء ، وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء فجلس الرجل حتى طال مجلسه ، ثم قام . فرآه رسول الله موليا فأمر به فدعى فلما جاء قال له : ماذا معك من القرآن ؟

قال : معى سورة كذا وسورة كذا ، عددها .

قال : أتقرؤهن عن ظهر قلبك ؟

---

(١) تفسير البيضاوى وغيره . ونسبه ابن كثير لابن مسعود .

(٢) رواه أصحاب السنن .

قال : نعم . قال : اذهب فقد زوجتكها بما معك من القرآن»[1] .

فليس وراء هذا سهولة ولا تيسير !

* * *

والمسألة فى حقيقتها ينبغى أن تكون فردية ..

فلو ترك الشباب لنفسه ، ليقيس كل شاب إمكانياته ويدرس أوضاع حياته لأمكن لكثير من الشباب أن يتزوجوا .

وعلى أساس هذه النظرة الفردية اتجه الخطاب الإسلامى للشباب فى هذا الصدد ، لكى يقدر الشاب المسلم مسئوليته ، وأن عليه أن يتدبر أمره ويقيس إمكانياته ثم يقرر مايراه على أساس من الصدق والوفاء .

يقول الرسول ﷺ :

« يامعشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة – أى أعباء الزواج – فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج »[2] .

وهذا خطاب حكيم يرعى الواقع ويحدد المسئولية ..

ولكن العجيب فى عصرنا أن يرى المجتمع أن الشباب لاينبغى له أن يحمل أعباء الأسرة ، وإنما يمكنه أن يعبث وينحرف ، فليست عليه مؤونة فى هذا الانحراف ..

مع أن حياة الانحلال والعبث والضياع التى يحياها بعض الشباب ، تكلفهم من المغارم ماتهون معه أعباء الزواج .. بل ان الخسارة فى الإنتاج والتحصيل التى تصيب الشباب من الخطيئة والانحراف ، أعظم بكثير من كل نفقة تصرف أو جهد يبذل فى سبيل الزواج ..

وإننا لنتساءل :

لماذا لاتكيف أحوال الشباب بصورة تيسر الزواج للراغبين ، فيستطيع طالب العلم مثلا أن يجمع بين الدراسة والعمل فى أوقات الفراغ ..

إن الشباب فى كثير من المجتمعات الإسلامية المعاصرة ينفق أوقات فراغه بأسلوب سفيه ، يلحق الأذى بالمجتمع ويشقيه ، فهو يقضى أوقاتاً طويلة فى اللهو ، وفى التسكع فى الطرقات ، وفى النوادى ، وفى الإيذاء والإغواء ..

وإن فى ذلك لضياعاً لكثير من الجهود ، وتبديدا لكثير من القوى !!

---

(١) رواه الخمسة

(٢) رواه الخمسة .

فما الذى يحول بين الشباب أن يتعلم ويعمل عملا يناسبه فى آن ؟ .

إن العمل مع طلب العلم يمتص الفراغ ، ويحفظ الطاقة ، ويعصم من الانحراف ويبث فى الشباب عزيمة الرجولة وتحمل الأعباء .

وقد يبدو الأمر قريبا فى الجامعات وما يشبهها .. ففيها أعداد كثيرة من الطالبات .. ويمكن أن تيسر السبل وتذلل الصعاب ليسهل الزواج بين الطلبة والطالبات الراغبين فى الزواج .

وبدلا من أن يتجه الفتى لإغواء زميلته أو خداعها بأى لون ، يجدها قد أصبحت زوجة له تقاسمه أعباء الدراسة وأعباء الحياة .. !

والذين يعملون على النهوض بالروح الجامعية وإشاعتها بين الطلبة والطالبات يستطيعون الإسهام – لو صدقت النيات – فى تيسير هذا الحل وتحقيقه .

ولكن بعض الناس يريدون أن تظل هذه المشكلة دون حل ليتحدثوا باسمها ويتصدروا ميدان القيادة والتوجيه .

والمؤسى أن أكثر الذين يتحدثون عن مشكلة الشباب ، يجهلون رأى الإسلام فى مشكلة الشباب ولا يُعنون بتعرفه ، ويذهبون بعيداً ، بينما الحل فى متناولهم سهل قريب ..

* * *

طريق التســـامى :

فإذا لم يتيسر الزواج للشباب بسبب اقتصادى أو اجتماعى ولم يقم المجتمع بواجبه نحوهم فى هذا السبيل فماذا يفعلون ؟

هنا ينادى الإسلام الشباب ليأخذ بأيديهم إلى سبيل أخرى ويعلو بهم إلى أفق رفيع تحفه الأمجاد ويحيطه الطهر والنقاء .

إنه يتسامى بطاقاتهم المذخورة فى ميادين تلهيهم عن نداء الغريزة وتعصمهم من الإكباب عليها ..

ويبدأ المنهج الإسلامى بدعوة تقوم على أساس الإيمان ..

دعوة من الله سبحانه للشباب ليتسامى ويتعفف ويتطهر .. ولكن لايكبت . فالإحساس بالغريزة – كما قدمنا – ليس إثماً ، وتمنى إجابتها بالطريق المشروع لاحرج فيه ، ولكن الأمر فى نظر الشباب المسلم – يرتبط بالحين المناسب ، فهو مع عفته واستعصامه يرجو اليوم الذى يتسنى له فيه أن يأوى إلى رحاب الأسرة ليسعد وينعم فى ظل من رضوان الله وعونه . والسعادة التى يحسها الشباب بانتصاره على دعوات الفوضى وإغراء الإباحة ، أعظم بكثير من كل متعة مختلسة أو تطلع حقير .

وهذا مايوحى به قوله سبحانه :

﴿ وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً ، حتى يُغنيهم الله من فضله ﴾ (١) .

فهذه الدعوة إلى العفة – حتى يُغْنى الله – تربية نفسية تقوى الإرادة وتهب العزيمة ، وتنير الطريق أمام الشباب . وهى كذلك تقضى على الكبت النفسى والعصبى ، وتمنح الشباب الطمأنينة والاستقرار .

مثل أعلى للعفاف :

ثم رسم القرآن المثل الأعلى لعفة الشباب فى هذه البطولة النفسية التى تتجلى فى قصة يوسف عليه السلام ، وجعلها نموذجاً رائعا لانتصار العقل على الهوى ، وقوة الإرادة فى وجه وساوس الشهوة : **﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾** وكان فى استعصامه آية لما يثمره اليقين بالله والخوف من عقابه **﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾** فنظر بعين العقل إلى العاقبة ، وقارن بين لذة فانية وعقوبة باقية وأمر قبيح ..

ولم يكن ذلك البرهان معجزة خارقة أو قوة خارجية حالت بينه وبين المعصية كما يذكر بعض المفسرين .

وإنما برهان الدليل أضاء فى صدره فأزاح ظلمات الشهوة ووساوس الشيطان :
﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ .

بل إن يوسف عليه السلام بلغ فى بطولته النفسية أرفع الدرجات حين تأزّم الأمر ، ولم يصبح أمامه إلا أمران : ظلمات السجن أو ارتكاب الفاحشة ، فإذا هو يستعلى على الشهوات ويرى السجن أهون منها وأسلم عاقبة ، وهذا فى منطق اللذة عجيب كل العجب ، ولكنه فى منطق الإيمان بديهية لا تتحمل الشك :

﴿ قال رب السجنُ أحبُّ إلى مما يدعوننى إليه ﴾ .

ثم نراه لا ينسى الاعتصام بالله واللجوء إليه ، إذ كانت مجاهدته لأجله وكان صبره حبًّا لطاعته وكراهة لمعصيته ، ولأنه يعلم أن التوفيق منه والهداية بيده : **﴿ وإلا تصْرف عنى كيدهن أصْبُ إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾** .

ولبث يوسف فى السجن بضع سنين ، ولا ذنب له إلا العفة وطهارة الخلق ! ثم كان فى السجن ظهور أمره وعرفان قدره . حتى كانت نجاته مقرونة ببراءته وتمكينه فى الأرض : **﴿ قلن حاشَ لله ماعلمناه عليه من سوء . قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾** .

---

(١) سورة النور ٣٣ .

وذلك المثل صورة تضىء للشباب فى كل جيل وقبيل ، تزين لهم طريق الاستعفاف وتريهم حسن عاقبته فى الدنيا قبل الآخرة ..

وهذه أحاديث الرسول صلوات الله عليه تزخر بما كان يوجهه إلى الشباب من حث على العفة وتوجيه إلى المصابرة ولهم أرفع الدرجات ..

فهو يقول : « **ياشباب قريش : احفظوا فروجكم ، لاتزنوا ، ألا من من حفظ فرجه فله الجنة** »(١) .

« **يافتيان قريش : لاتزنوا ، فإنه من سَلِمَ له شبابه دخل الجنة** »(٢)

وتلك إشارات إلى التوجيه النفسى تهدى إلى ألوان كثيرة من الدعوة والإقناع .

ومن الوجهة السلوكية يصرف الإسلام الشباب إلى ان يستغلوا طاقاتهم فيما يعود على أنفسهم وعلى أمتهم بالخير والنماء . فالعبادة بصورها المختلفة والخدمة العامة التى يجعلها الإسلام فريضة على كل قادر ، والفروسية والاستعداد للجهاد ، كل ذلك كان سمة من سمات الشباب المسلم فى كل العصور . وقد كانت « الفتوة الإسلامية » نظاماً عاما فى الأقطار الإسلامية ، تحقيقا لقول الله سبحانه ﴿ **وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم** ﴾ (٣) . ولذلك كان عمر بن الخطاب يقول للمسلمين : « علموا أولادكم الرماية وركوب الخيل ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا » .

والأمر متروك للمجتمع ليختار للشباب وجوه النشاط والعمل ، التى تحقق الإعلاء والتسامى بالغريزة ، وتصرف الطاقة فيما يفيد .

أما الفتاة فالأمثل لها أن تشغل أوقات فراغها بالتهيؤ للأمومة والتخصص فى شئون الأسرة ورعاية النشء ، وتعلم ما يتصل بذلك من قريب أو بعيد ، ثم بإشاعة المرحمة وبذل العون فى كل جانب يحتاج إلى جهدها .

● ومن مناهج التسامى بالغريزة وإعلائها مادعا الرسول ﷺ الشباب إليه ، حين قال : « **يامعشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء** » (٤) أى وقاية وستر .

والصيام فوق كونه يقوى الإرادة ويثبت العزيمة ، يهذب الغريزة ويصرف الطاقة ، وهو صورة من صور العبادة التى تملأ القلب بالسكينة والطمأنينة والإيمان ، فيرتفع عن النزوات والشهوات .

---

(١) رواه الحاكم والبيهقى .
(٢) البيهقى .
(٣) سورة الأنفال ٦٠ .
(٤) رواه الخمسة .

● وإلى جوار هذا يهتم الإسلام برعاية الشباب نفسيًّا وفكريًّا فلابد من الوصول إلى قلوبهم وتصحيح اتجاهاتهم فى جانب الغريزة ..

وفى هذا الحديث مثل صالح يحتذى به ويُسار على هداه .

روى الطبرانى عن أبى أمامة قال : جاء شاب إلى النبى ﷺ فقال له : يارسول الله ، أتأذن لى فى الزنا .

فتصايح الناس وأنكروا قوله . ولكن رسول الله صلوات الله عليه أدناه منه ودار بينهما هذا الحوار :

— هل ترضاه لأمك ؟

— لا

— كذلك الناس لايرضونه لأمهاتهم

— هل ترضاه لأختك ؟

— لا

— كذلك الناس لايرضونه لأخواتهم

— هل ترضاه لابنتك ؟

— لا

— كذلك الناس لايرضونه لبناتهم .

وهكذا وضع الرسول صلوات الله عليه على يد الفتى الحقيقة ولفت نظره إلى حكمة المنع والحظر ، وأيقظ فى نفسه الشعور الاجتماعى ، وكفّ عنه حدة الأنانية التى تتبع الهوى وتغفل عن علاقة الفرد بالمجتمع وعن العقد الاجتماعى الذى ارتقت به الحياة . ثم دعا له بدعوات موحية ذات معزى عميق ، فقال : « **اللهم طهر قلبه ، وحصن فرجه ، وغض بصره** » .

قال الفتى : « فوالله ماالتفتّ بعدها لشيء من ذلك أبداً » .

فهذا يكشف عن واقعية الإسلام ، وتفهمه لمشاعر الشباب وتقديره لما يعانيه من صراع بين الواجب واللذة وبين المثل والواقع ، وهى لمحة ينبغى أن يسير على خطاها الهداة والمرشدون فى كل زمان .

* * *

توجيه مثالى :

ونثبت هنا كلمة طريفة تمثل لوناً من التوجيه الإسلامى المعاصر للشباب فهى نموذج

للفهم البصير والإقناع الهادىء الذى يدعو إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة (١) :

« لماذا تكتب إلىّ على تردد واستحياء ؟

أتحسب أنك أنت وحدك الذى يحس هذه الوَقْدة فى أعصابه من ضرم الشهوة ، وأنك أنت وحدك الذى اختص بها دون الناس أجمعين ؟!

لا يابنىّ ، هوِّن عليك ، فليس الذى تشكو داءك وحدك ، ولكنه داء الشباب .

ولئن أرّقك هذا الذى تجد ، وأنت فى السابعة عشرة ، فلطالما أرّق كثيرين غيرك ، صغاراً وكباراً ، ولطالما نفى عن عيونهم لذيذ الكرى ، ولطالما صرف عن درسه التلميذَ ، وعن عمله العاملَ ، وعن تجارته التاجرَ ..

وما الحب الذى افتن فى وصفه الشعراء ، وفى تحليله الأدباء ، إلا ماتجده أنت سواء بسواء ، ولكنك أخذته مجرداً مكشوفاً فعرفه الناس ولم يخدعوا عنه ، وأخذوه فلفُّوه ليخدعوا عن حقيقته الناس ، وشربتَ بفيك من الينبوع ، وشربوا بالكأس المذهَّبة الحواشى ، والماء فى كأس أبى نواس التى أقام فى قرارتها كسرى ، كالماء فى الساقية ، والشهوة فى رسالتك إلىّ ، كالشهوة فى غزل الشعراء ، وشعر الغزِلين ، ولوحات المصورين ، وألحان المغنين ، ولكن الضمير هاهنا بارز ظاهر ، والضمير هنالك مستتر خفى ، وشر الداء ماخفى واستتر !

إنه ماأشرف على مثل سنك أحد إلا توقَّد فى نفسه شىء كان خامداً . فأحس حرَّه فى أعصابه ، وتبدلت فى عينه الدنيا غير الدنيا والناس غير الناس .

فلم يعد يرى المرأة على حقيقتها إنساناً من دم ولحم ، له ماللإنسان من المزيا وما فيه من العيوب ، ولكن أملاً فيه تجتمع الآمال كلها ، وأمنية فيها تلتقى الأمانى ، ويلبسها من خيال غريزته ثوباً يخفى عيوبها ويستر نقائصها ، ويبرزها تمثالا للخير المحض والجمال المكمل ، ويعمل منها مايعمل الوثنى من الحجر ينحته بيده صنما ، ثم يعبده بطوعه ربًّا !

إن الصنم للوثنى رب من حجر ، والمرأة للعاشق وثن من خيال !

كل هذا طبيعى معقول ، ولكن الذى لايكون أبداً طبيعاً ولا معقولا ، أن يحس الفتى بهذا كله فى سن خمس عشرة أو ست عشرة سنة ، ثم يضطره أسلوب التعليم إلى البقاء فى المدرسة إلى سن العشرين أو خمس وعشرين .

فماذا يصنع فى هذه السنوات ، وهى أشد سنى العمر اضطرام شهوة واضطراب جسد ، وهياجاً وغلياناً ؟

ماذا يصنع ؟

هذه هى المشكلة !

---

(١) للأستاذ على الطنطاوى من كبار قضاة سوريا وأدبائها ..

أما سنة الله ، وطبيعة النفس ، فتقول له : تزوج .

وأما أوضاع المجتمع وأساليب التعليم فتقول له : اختر إحدى ثلاث كلها شر ، ولكن إياك أن تفكر فى الرابعة التى هى وحدها الخير ، وهى الزواج !

١ - إما أن تنطوى على نفسك ، على أوهام غريزتك وأحلام شهوتك ، تدأب على التفكير فيها ، وتغذيها بالروايات الداعرة والأفلام الفاجرة والصور العاهرة حتى تملأ وحدها نفسك ، وتستأثر بسمعك وبصرك ، فلا ترى حيثما نظرت إلا صور الغيد الفواتن ، تراهن فى كتاب « الجغرافيا » إن فتحته ، وفى طلعة البدر إن لمحته ، وفى حمرة الشفق ، وفى سواد الليل ، وفى أحلام اليقظة وفى رؤى المنام ..

أريد لأنسى ذكـرها فكأنمـا   تمثّـل لى ليلَى بكل سبيــلِ

ثم لا تنتهى بك الحال إلا الهوس أو الجنون أو انهيار الأعصاب .

٢ - وإما أن تعمد إلى مايسمونه اليوم « الاستمناء » وقد كان يسمى قديماً غير هذا ، وقد تكلم فى حكمه الفقهاء ، وقال فيه الشعراء ، وكان له فى كتب الآداب باب ، لاأحب أن أدل عليه أو أرشد إليه ، وهو وإن كان أقل الثلاثة شرّاً وأخفها ضرراً ، لكنه إن جاوز حدَّه ركب النفس بالهم ، والجسم بالسقَم ، وجعل صاحبه الشاب كهلا محطماً ، كئيباً مستوحشاً ، يفر من الناس ويجبن عن لقائهم ، ويخاف الحياة ويهرب من تبعاتها ، وهذا حكم على المرء بالموت وهو فى رباط الحياة .

٣ - وإما أن تعرف من حمأة اللذة المحرمة وتسلك سبل الضلال ، وتؤم بيوت الفحش ، تبذل صحتك وشبابك ومستقبلك ودينك فى لذة عارضة ، ومتعة عابرة ، فإذا أنت قد خسرت الشهادة التى تسعى إليها ، والوظيفة التى تحرص عليها ، والعلم الذى أملت فيه ، ولم يبق لك من قوتك وفتوتك ماتضرب به فى لجّ العمل الحر .

ولا تحسب بعد أنك تشبع .. كلا ، إنك كلما واصلت واحدة زادك الوصال نهماً ، كشارب الماء الملح ، لايزداد شرباً إلا ازداد عطشاً ، ولو أنك عرفت آلافاً منهن ثم رأيت أخرى متمنعة عليك ، معرضة عنك ، لرغبت فيها وحدها ، وأحسست من الألم لفقدها مثل الذى يحسه من لم يعرف امرأة قط !

وهبْك وجدت منهن كل ماطلبت ، ووسعك السلطان والمال ، فهل يسعك الجسد ؟ وهل تقوى الصحة على حمل مطالب الشهوة ؟

دون ذلك وتنهار أقوى الأجساد ، وكم من رجال كانوا أعاجيب فى القوة ، وكانوا أبطالا فى الرَّبع والصرع والرمى والسَّبق ، ماهى إلا أن استجابوا إلى شهواتهم وانقادوا إلى غرائزهم حتى أمسوا حطاما ..

إن من عجائب حكمة الله ، أنه جعل مع الفضيلة ثوابها ، الصحة والنشاط ، وجعل

مع الرذيلة عقابها ، الانحطاط والمرض ، ولربَّ رجل ماجاوز الثلاثين ، يبدو مما جار على نفسه كابن ستين ، وابن ستين يبدو من العفاف كشاب فى الثلاثين ، ومن أمثال الإفرنج التى سمعناها وهى حق وصدق : من حفظ شبابه حُفظت له شيخوخته .

وكأنى أسمعك تقول : هذا الداء فما الدواء ؟

الدواء أن تعود إلى سنة الله وطبائع الأشياء التى طبعها الله عليها ، إن الله ماحرّم شيئاً إلا أحل شيئا مكانه ، حرم المرابة وأحل التجارة ، وحرّم الزنا وأحل الزواج . فالدواء هو الزواج .

فإذا لم يتيسر لكِ الزواج ، ولم ترد الفاحشة ، فليس إلا التسامى ، وأنا لاأريد أن أعقّد هذا الفصل ، الذى كتبته ليكون مفهوما واضحا ، بمصطلحات علم النفس لذلك أعمد إلى مثال أمثله لك :

أترى إلى إبريق الشاى الذى يغلى على النار !

إنك إن سددته فأحكمت سده ، وأوقدت عليه ، فجَّره البخار المحبوس ، وإن خرقته سال ماؤه فاحترق الإبريق ، وإن وصلت به ذراعا كذراع القاطرة ، أدار لك المصنع ، وسيّر القطار وعمل الأعاجيب .

فالأولى حالة من يحبس نفسه على شهوته ، يفكر فيها ويعكف عليها ، والثانية حال من يتبع سبيل الضلال ويؤم مواطن اللذة المحرمة ، والثالثة حالة المتسامى .

فالتسامى هو أن تنفس عن نفسك بجهد روحى أو عقلى أو قلبى أو جسدى ، يستنفد هذه القوة المدخرة ، ويخرج هذه الطاقة المحبوسة . بالالتجاء إلى الله والاستغراق فى العبادة ، أو بالانقطاع إلى العمل والانغماس فى البحث ، أو بالتفرغ للفن والتعبير عن هذه الصور التى تصورها لك غريزتك ، بالألفاظ شعراً ، أو بالألوان لوحة ، أو بالألحان نغماً ، أو بالجهد الجسدى والإقبال على الرياضة ، والعناية بالتربية الدينية أو البطولة الرياضية ، والإنسان – ياابنى – محب لنفسه لايقدم أحداً عليها ، فإذا وقف أمام المرآة ورأى استدارة كتفيه ، ومتانة صدره ، وقوة يديه ، كان هذا الجسم الرياضى المتناسق القوى ، أحب إليه من كل جسد أنثى ، ولم يرض أن يضحى به ، ويذهب قوته ويعصر عضلاته ، ويعود به جلداً على عظم ، من أجل سواد عينى فتاة ولا من أجل زرقتهما .

هذا هو الدواء : الزواج ، وهو العلاج الكامل ، فإن لم يمكن فالتسامى وهو مسكن مؤقت ، ولكنه مسكن قوى ، ينفع ولا يؤذى .

أما مايقوله المغفلون ، أو المفسدون ، من أن دواء هذا الفساد الاجتماعى هو تعويد الجنسين الاختلاط حتى تنكسر حدة الشهوة ، وفتح « المحلات العمومية » حتى يقضى بها على البغاء السرى ، فكلام فارغ . وقد جربت الاختلاط امم الكفر كلها فما زادها

إلا شهوة وفساداً ، أما المحلات العمومية فإننا إذا أقررناها وجب أن نوسعها حتى تكفى الشبان جميعا ، وإذن فينبغى أن يكون فى القاهرة أكثر من عشرة آلاف بغى ، لأن فى القاهرة مائة ألف شاب على الأقل .. وإذا نحن جوزنا للشباب ارتيادها فاستغنوا بذلك عن الزواج ، فماذا نصنع بالبنات ؟ هل نفتح لهن أيضا محلات عمومية فيها « بغايا » من الذكور ؟!

* * *

كلام فارغ يابنى والله ..

وما تقوله عقولهم . ولكن غرائزهم ،وما يريدون إصلاح الأخلاق ، ولا تقدم المرأة ، ولانشر المدنية ، ولا الروح الرياضية ، ولا الحياة الجامعية ، إنما هى ألفاظ يتلفظون بها ويبتدعون كل يوم جديداً منها ، يهولون به على الناس ، ويروجون به لدعوتهم ، وما يريدون إلا أن تخرج لهم بناتنا وأخواتنا ليستمتعوا برؤية الظاهر والمخفى من أجسادهن ، وينالوا الحلال والحرام من المتعة بهن ، ويصاحبونهن منفردات فى الأسمار ، ويراقصونهن متجملات فى الحفلات ، وينخدع مع ذلك بعض الآباء فيضحون بأعراض بناتهن ليقال إنهم من المتمدنين . اهـ .

* * *

فى ظل الإسلام يجد الشباب الرعاية والتوجيه ، فلا تبقى مشكلتهم سلعة للتجارة ، ولا عبثا فى أيدى الفارغين الجاهلين بسنن الحياة ، المولعين بالتقليد ينعقون بما لا يعقلون .. من الذين قال الله فيهم :

﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل ﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة ٧٧ .



أبـــواب الفـــوضى

انتهينا فى الفصل السابق إلى أن تنظيم الاستجابة للغريزة على نحو مايرى الإسلام : هو الدواء الناجح الذى يتيح للفرد والمجتمع السعادة والاستقرار . بينما الفوضى تشقى الفرد . وتدمر المجتمع ، وتثير الخلل فى كل نواحى الحياة .

ولكن الأمر لن ينتهى بمجرد إثبات هذه الحقيقة وتوكيدها . فمهما بلغ من اقتناع الناس بها ، فإنهم لايستطيعون التزامها وتطبيقها إلا عندما توصد الأبواب التى تغرى بالفوضى وتزينها .

والواقع أن فى المجتمع المعاصر - منافذ مفسدة تقلقه وتشقيه ، وتبذر فيه بذور فساد عريض .

فمن الواضح أن بعض مصادر التوجيه والتأثير فى المجتمع تتجه نحو الدعوة إلى فوضى العلاقات وتزينها ، على اختلاف بينها فى الصراحة والتعريض .

ولن نستطيع إلزام الناس بالاتجاه نحو النظام والاستقرار فى العلاقات إلا حينما نهيىء الجو الصالح الذى ييسر ذلك ويحببه ، وإلا أصبح أمراً فوق الطاقة لايمكن تنفيذه أو الالتزام به ..

ولو ترك الناس وشأنهم فى مسألة الغريزة ، ولم تسلط عليهم هذه المثيرات والمغريات . ماشعروا بالعنت أو الصراع وما ألحت المشكلة هذا الإلحاح الذى يثير الفوضى والاضطراب .

* * *

إن اتجاه بعض مصادر التوجيه والتأثير فى المجتمع نحو الدعوة إلى الفوضى الخلقية ، أو تهيئة الأذهان لها ، أمر له خطره فى ميزان الترجيح بين الدعوة إلى الانحراف وبين الدعوة إلى النظام والاستقرار .

وهذا الاتجاه هو وليد هذا العصر ، الذى ابتلينا فيه بالاستعمار العسكرى والثقافى .

فلم يعرف المجتمع الإسلامى ، فى عصر من عصوره ، هذا الاتجاه الخبيث ، الذى يرغب فى الحرام ويبغض الحلال ، ويوقد الفتنة فى نفوس الشباب .

بل كان الاتجاه العام فى المجتمع المسلم ، العمل على تنقية الجو من دعوات الفاحشة ، وعوامل الفساد التى تصرف الجماهير عن الجد والاستقامة والسير القويم .

ونشير إلى موقف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه من نصر بن الحجاج الفتى الجميل ، حين نفاه من المدينة خشية أن يصبح فتنة تهدد الأخلاق التى يرعاها المجتمع الإسلامى ، مايشير إلى الوعى والانتباه الذى كان يشمل ذلك المجتمع ويفتح عينه على عواقب الأمور .

● لقد عنى الإسلام بإغلاق مسالك الانحراف الخلقى كما عنى بإقامة دعائم العفاف فى نفوس الأفراد ، وفى أوضاع المجتمع .

فالإسلام يحرم على المسلم إطلاق العنان للنظر العابث الذى ينشأ عنه كثير من الشرور ..

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ .

كما نهى المرأة عن إثارة الغرائز ، والإغراء فى المظاهر والكلمات : **﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها ﴾ ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ ﴿ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾** .

ويحرم الاختلاط العابث ويغلق منافذه ، ويحرم الموبقات والفواحش التى تزين الفوضى ترغب فيها .

وليس معنى ذلك أن ننفى شبح الخطيئة عن المجتمع المسلم فى عصوره السابقة .

فالانحراف ظاهرة إنسانية لايخلو منها عصر ، ولكن هناك فرقا بين أن تحدث الجريمة كمظهر شاذ يصيب بعض الأفراد ، وبين أن توجد كموجة عامة يشذ عنها بعض الأفراد .

* * *

والآن .. علينا أن ننظر فى أنحاء مجتمعنا بصدق وعدل لنرى المسارب التى تفتح باب الانحراف أو تهيىء الأذهان له .

إننا سننظر الأثر الذى تحدثه فى مجتمعنا هذه المصادر الثمانية :

الأزياء – السينما – دور اللهو – الإذاعة – الصحافة – المخدرات والمسكرات – الأداب المكشوفة – الاختلاط العابث .

فهذه هى مصادر التوجيه والتأثير ذات العلاقة بمشكلة الغريزة ، وبتطهير المجتمع من شرورها يستقيم سيره ويرشد اتجاهه وينصرف إلى الجد والعمل ويألف حياة الاستقامة والفضيلة .

الأزيــاء الفاضحــة

كان للثياب عند الإنسان الأول وظيفة لا تتعداها هى ستر الجسد ووقايته مما يتهدده من أخطار الظواهر الطبيعية .

فلما ارتقت بالإنسان الحضارة وارتفع به الاجتماع ، أضاف إلى ذلك غرضاً آخر ، فعرف التجمل والتزين ، والأناقة فى الملبس التى اختلفت من مجتمع لآخر .

وهذان الغرضان مشروعـان ، وإليهمـا يشير القـرآن عقب الحديث عن آدم وزوجـه ، بقوله :

﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم . وريشاً ولبـاس التقـوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾(١) .

ولكن المجتمع المادى المعاصر لم يقنع بذلك ، بل اتجه بزى المرأة وجهة سيئة ، فجعله سلاحا فتاكا يعصف بالأخلاق ويثير الفتنة ويشيع فى المجتمع ألوانا من العبث والانحراف .

فلا ينكر أحد الأثر الخطير للأزياء التى تجعل من المرأة وسيلة هدم لقيم المجتمع ومشكلة تشغل عن العمل وتحول دون الإجادة والإخلاص ..

إن هذا اللون من الأزياء أول باب يثير انحراف الغريزة . إذ أنه يوحى بالإثم ويوحه إلى الفسوق ويبدد من المجتمع ظل العفاف والاستقامة ..

إنه يستلفت نظر الرجل فيتطلع إليه ، ولا يملك نفسه من ترديد النظر ، حتى يشعر بأنه نال حظه من الزينة المعروضة والجمال المباح .

والشبـاب هم أشد النـاس شقـاء بهذه الفتنـة ، فلا يملك الشاب أن يشعـــر بشيء من الاستقرار أمام هذا التيار الشديد . إنه لايستطيع ملاحقة مواكب الحسان الفاتنات الكاشفات عن الجسد ، ببصره فضلا عما تطالبه به الغريزة مما وراء ذلك .

فماذا يفعل الشاب أمام هذا التيار العنيف ..

إن ذلك يرهق الأعصاب ويشقى النفس ويصرف عن الجد والفلاح ..

والحق أن المجتمع إذا تطهر من هذا اللون من الإغراء .. هبطت فيه موحـة الجريمة وهـدأ تيار الانحراف .

ولكن أمن المجتمع وسلامة اتجاهه ليس فى حساب من يعملون على انتشار هذه الموجة من التقليد المدمر ، وعلى اقتفاء آثار الشذاذ فى كل مجتمع ..

---

(١) سورة الأعراف ٧٦ .

- من الذى يخترع هذه الأزياء ؟

إنهم حفنة من التجار ، أكثرهم من اليهود ، من الذين يريدون أن تعم الفوضى كل الأنحاء، وأن يجتثوا أصول الأخلاق من المجتمعات، لتنحل وتتبدد قواها ويسهل امتلاك زمامها ..

إن أولئك يصدرون عن عقائد غير عقائدنا وأخلاق غير أخلاقنا ..

وإنهم ليتطلبون من الإنسان صورة غير مارسمه لنا ديننا وحدده لنا تراثنا وتاريخنا ..

إن إسلامنا يأبى علينا الانقياد وراء هذا التيار العابث ، وإن عروبتنا لتحول بيننا وبين التردى فى هذه الحمأة الآسنة ..

وإن الإنسانية لتسمو بالإنسان فوق هذا المستوى الحقير الذى يهدد كرامة الإنسان ..

وإن الأمر ليس هينا كما يحاول المجادلون بالباطل أن يقرروه ، وليس شكلا لا يدل على شىء وراءه ..

بل إنه مظهر يكشف عن مخبر ، ورمز يوحى بما وراءه من حقيقة ، ويكشف عن ضياع الأصالة وانهيار روح الحضارة العربية فى النفوس ..

إنها مشكلة حضارة وتقاليد ..

إن شعور التبعية النفسية والاستعمار الاجتماعى ، والخضوع والإحساس بالنقص هو الذى يحمل النساء فى مجتمعنا على اتباع تيار الأزياء الفاضحة التى تستهدف الفتنة والإغراء . وهو أيضا الذى يحبب إلى بعض الناس عندنا الدعوة إلى تعميم هذه الأزياء باسم الرق والتحضر ، بل إلى المطالبة بتحريم الأزياء المستترة البعيدة عن الإغراء .

ولو كان هناك نوع من الأصالة الاجتماعية والثقة بالحضارة العربية لما اتجه هؤلاء هذا الاتجاه العجيب .. إذ أن الزى أولا مظهر قومى متوارث وأمامنا شعوب كثيرة مازالت تتمسك بأزيائها مهما بلغت من التعقيد ، ومازالت تحافظ على زيها العتيد .

فكيف ترضى المرأة العربية بالانقياد وراء ذلك التيار الذى يسلبها خصائصها ويحيلها إلى مسخ شائه يندفع إلى التقليد ويجرى خلف كل جديد .

وهى التى عاشت قرونا متطاولة وفق أخلاقها المتينة وأصالتها الواضحة .

ومما يجسم الخطر أن تيار العبث بالأزياء لايقف عند حد ، بل إنه يولع بكل غريب ويتجه إلى كل مايلفت الأنظار ويثير العجب ..

لقد تفننت الأزياء فى إبراز الفتنة والإغراء بالانحراف فلم تدع لذلك وسيلة إلا اتجهت إليها مهما بدت معيبة ، ومهما امتهنت كرامة الإنسان وأحالته إلى سلعة أقل من الحيوان .

وليس لهذا العبث منطق أو عقل ، وإنما هو تقليد يسرى فى المجتمع كالداء ، لايوضع موضع النظر والتفكير .

وقد كان هذا لوناً من ألوان التجارة بالجسد ، التى اتجهت إليها النساء فى المجتمع الغربى حينما ضاق بهن الحال واتجهن إلى كسب القوت ، فرأين أن عرض الجسد بهذه الصورة يفتح الأبواب المغلقة ، ويسهل المسالك الصعبة ، ويدر الربح الوفير ، فالمرأة الأوربية لا تستنكف عن شيء يجلب لها المال ، ولو كان منافياً للتقاليد أو الأخلاق . فالإثارة بالملابس – فى نظرها – لون مشوق وطريف يضمن لها أينما سارت الاهتمام ، ويجمع حولها الراغبين والطالبين .

وهو تفكير مادى لايستحق المتابعة وسلوك لايستأهل الاحترام .

يقول الأستاذ مالك بن نبى :

« كانت المرأة الأوربية إلى عهد قريب تلبس اللباس اللطيف تستتر به مع أنوثتها سرها المكتوم حتى أخمص قدميها ، وتتخذ من حيائها حاجزاً يمنعها من التردى فى الرذيلة ، فكانت بردائها هذا خير مثل للرقة والأدب فى المجتمع ، إذ كانت السيدة الجديرة بالاحترام : الزوجة الصالحة التى تمسح بيديها الرقيقتين عن نفس الزوج متاعب العمل .

غير أنها أصبحت اليوم تلبس اللباس الفتان المثير الذى لايكشف عن معنى الأنوثة بل عن عورة الأنثى ، فهو يؤكد المعنى الجسدى الذى يتمسك به مجتمع ساده الغرام للذة العاجلة » (١) .

* * *

وكل حين تظهر ألوان من الأزياء تحدث ضجة مفتعلة وأحاديث لاغية .

فإذا بدا لأحد من شياطين الأزياء أن يثير الفوضى اخترع زيًّا عجيباً تتلقاه النساء المقلدات بالخضوع والإذعان ، وسرعان مايغزو كل مكان ويظهر فى كل مجتمع ..

وهو لون من ألوان اللهو الحقير يضيع جهود الأمة بغير جدوى ، وينشر فى المجتمع الصغار والانحراف !

وهذه الأزياء أحقر من أن يثار حولها حديث أو يشغل بها ذهن ... إنها جميعاً أزياء تجارة ... تجارة بالفتنة واكتساب عن طريقها ، سواء كان كسب مال أو كسب إعجاب واهتمام . وليس للعفاف والفضيلة والحد إلا زى واحد ، تعرفه كل مسلمة تنزه نفسها من عرض الجسد أو إثارة الاهتمام عن طريقه وهو الزى الذى لايتكلف إظهار مالا ضرورة لإظهاره من الزينة ، والذى لايهدف إلى إشعال الفتنة وإثارة الغريزة وذلك الذى أمر الله به حين قال فى كتابه :

---

(١) شروط النهضة ص ١٨٠

﴿ وقل للمؤمناتِ يغْضُضنَ من أبصارهن ويحفظْنَ فروجهن ، ولا يُبْدين زينتهن إلَّا ماظهرَ منها ، وليضرِبْنَ بخُمُرِهنَّ على جُيوبهنَّ ﴾ [1] .

وهذا النظام الإلهى من الأهمية بقدر كبير ، فإن الأزياء الفاضحة والتى تحمل طابع الإثارة ذات أثر واضح فى توجيه الرجال إلى الإثم وإغرائهم بألوان من الفسوق وكذلك فى انسلاخ المرأة عن مبادىء العفاف والشرف وإيقاظ نداء الغريزة قوياً مُلحاً فى أرجاء المجتمع مما يحدث كثيراً من المآسى والأحداث ولكن الحضارة الحديثة جعلت من مسألة الأزياء سلاحاً خطيراً فى وجه الأخلاق والمثل وجعلت من جسد المرأة شيئاً سيئاً ، كل همها أن تستلفت إليه الأنظار وتتفنن فى المواقف التى تتخذها منه .

والمرأة المعاصرة طائعة ذليلة لكل ما يختاره لها العابثون ، وقد وقر فى أذهان النساء أن التخلف عن هذه الأزياء «العالمية» كما يصوفنها انقطاع عن الحضارة وتأخر عن موكب المدنية والتقدم .

ولئن كانت المرأة الأوربية أو الأمريكية لاترى بأساً فى اتباع هذا التيار الجارف من فوضى الأزياء ، فإن المرأة المسلمة لابد أن ترى فى هذا التيار بأساً وأى بأس ! .

إنها مطالبة أن تحيا فى حدود أخلاقها ومبادئها ، وأن تحافظ على استقامة المجتمع وطمأنينته ، وإلا فقد جحدت مبادىء الإسلام تجاهها ونكصت عن رسالتها الاجتماعية التى أرادها لها .

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [2] .

والإسلام يرى أن سعى المرأة لإثارة الفتنة عن طريق الزينة والتبرج موقف من مواقف الجاهلية لاينبغى للمجتمع الإسلامى أن يتردى فيه . فهو لايتفق مع اتجاهه وخلقه ، وهذا التبرج ليس إبداعا ولا تقدماً ولكنه تأخر وفساد .

﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ [3] .

● ومن العجيب أن تخدع المرأة المسلمة المعاصرة عن هذه الحقيقة ، أو أن ترى فى دينها تأخراً وجموداً ، وترى فى موقف الحضارة المادية تقدماً ورقيًّا .

ولكن الذين آمنوا بحضارة الغرب وكفروا بمبادىء الإسلام يعملون على إقناع المرأة المسلمة أن تواصل المسير فى ركب الحضارة الغربية الشكلية ، وأن تجعل من جسدها شيئاً مهيناً ، تبدى منه مايشاءون وتستر مايشاءون .

ويصل الأمر إلى أزمة شديدة وتناقض فى باطن المرأة المسلمة التى تحس بالصراع بين

---

(١) سورة النور آية ٣١ . والخمر جمع خمار وهو ماتستر به المرأة رأسها ونحرها .
(٢) سورة الأحزاب ٣٦ . (٣) سورة الأحزاب ٣٣ .

مايوجبه عليها دينها من تستر واحتشام ، وبين ماتفرضه عليها تيارات المدنية المتغيرة .

ويحاول البعض أن يهون من الأمر وأن يجادل بالباطل فيزعمون أن المدار على الخلق والاستقامة وأن الزى شكل لايمثل مشكلة خلقية .

والحق أن هذا خداع وإنكار للحقيقة ، فإن الأزياء الفاضحة التى فتنت بها النساء فى عصرنا باب خطير من أبواب الفوضى الخلقية ، وأن لها إيحاءها السيء وتأثيرها الخطير فى كثير من المجالات .

وإننا لنرى أن إقناع المرأة المسلمة بموقف دينها ومبادئه فى هذا الجانب ، أول خطوة يجب علينا أن نخطوها حتى تعود المرأة المسلمة إلى اعتزازها بعفافها وخلقها وتنأى بنفسها عن تيار التقليد والهوان .

إن الإسلام حين وضع للنساء ضوابط الاحتشام والتستر ، لم يبغ إلا حفظ إنسانية المرأة وصون كرامتها عن التهريج والإسفاف .

والعجيب أن بعض النساء المؤمنات بمبادىء دينهن وأخلاقه لايملكن من الشجاعة مايستعلن به بالتستر والاحتشام . فيجرفهن التيار خشية الظهور بمظهر الرجعية والنكوص ..

إن تيار التقليد والمتابعة سهل يسير ، ولكن موقف الحفاظ والاعتداد بالكرامة الإنسانية يحتاج إلى عقيدة قوية وشجاعة خلقية ..

ولكنك تسمع هذه النغمة فى كل مجتمع ..

إن الحفاظ مستحيل والاحتشام ليس فى المقدور . وغير ذلك ، مما يوحى بأن التيار قد جرف النفوس وأصاب العزائم بالعجز والتسليم ..

فهل يدرى هؤلاء أن موجة تقليد الأزياء الغريبة يمكن أن تنحسر إذا شاع فى المجتمع طابع الأصالة الحضارية والثقة بالتقاليد الفاضلة والتاريخ العتيد ..

إنها عدوى اجتماعية .. فإذا استطاع أهل الإيمان الصمود فى الدعوة إلى التستر والصون ، فإن موجة التميع والانحراف ستهن ويتقلص ظلها المخيف . إننا ندعو إلى القدوة العملية ، وإلى إقامة « بيوت أزياء إسلامية » لتحدد لنساء الإسلام أزياءهن فى شتى المجالات ، فالمرأة المسلمة لابد أن تتميز بعفافها واستقامتها وقيامها بواجبها ، إنسانة نبيلة ، لاأنثى تشيع فى المجتمع الفتنة والوبال .

لقد أحس الكثيرون بقبح الآثار التى تسببها الأزياء العابثة التى انتشرت بين نسائنا ، فطالبوا بإصلاح عاجل وتدارك سريع .. نادى بذلك نساء فاضلات رفعن أصواتهن بالإنكار والاستهجان .

والأمر فى الحقيقة يفتقر إلى جهد كل مصلح ، وخاصة من يستطيعون التوجيه والتغيير ..

وقبل أن يسرى التيار إلى أنحاء مجتمعنا التى لم تصل إليها تلك الموجة الهادرة من العبث والانحلال .

إن الأزياء الفاضحة عدوان على عفاف الإنسان ، وإعنات له ، وإرهاق لمشاعره وإغراء له باتباع الهوى والانحراف عن طريق الإيمان ..

إنها ظلام يبدد نور الاستقامة ويبث فى الحياة الخلل والاضطراب ، ويثير فى الناس نوازع الفساد والاعوجاج ، ومن أجل هذا شبه الرسول صلوات الله عليه المرأة المتبرجة بالظلمة التى لانور فيها فى قوله :

« مثل الرافلة فى الزينة فى غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها »[1] !

وإن أساس الخطيئة نظرة تحركها الفتنة التى توقظ الغريزة وتثير الانتباه ..

فهلا أقمنا سدّاً دون ذلك السيل الذى يوشك أن يقتلع جذور العفاف والحياء ..

وهلا رحمنا الشباب المسلم من إلحاح الأجساد العارية والمفاتن المعروضة ، التى تستهدف قتل الأخلاق ؟!

إنها مسئولية الرعاة والموجهين ، وإن إسقاط المسئولية على الآخرين لايعفى من حساب الله ، ولا يبرىء من إثم التفريط وخيانة مبادىء المجتمع الإسلامى وهدم مثله وقيمه التى ينبغى أن تسود ..

---

(١) رواه الترمذى .

السينما العابثـــة

لايستطيع أحد أن يتجاهل تأثير « السينما » كوسيلة من وسائل التوجيه والترويج ..

إنها اختراع بالغ الأهمية فى حياة المجتمع المعاصر ، يلقن المبادىء ويوجه السلوك ، وينقل المظاهر والعادات والتقاليد من حال لحال ..

● وتختلف مواقف المجتمعات من هذه الوسيلة الخطيرة من وسائل التأثير ، فمنهم من يحدد لها إطارا لاتتعداه ، ويجعلها فى خدمة مبادىء المجتمع ويُلْزمها رعاية أهدافه ..

● ومنهم من يطلق لها العنان ، ويجعلها جانباً من جوانب التجارة والكسب ، ويغفل عن آثارها المدمرة حين تتجه إلى استمالة الأهواء وتنشد تحقيق الربح من السبل المعوجة ولا تبالى بما يصيب المجتمع من عناء ..

● وقد كانت نشأة هذا الفن فى بلاد العروبة والإسلام صدى لاتجاهه فى المجتمع الغربى الذى كانت له السيطرة على الموارد والمصادر فى ذلك الزمان ..

وكان الأوائل الذين قاموا على هذا الفن من الذين غلبت عليهم أفكار التقليد واتجاهات المحاكاة دون وعى أو اختيار ..

وما زال البناء يكتمل حتى انتهى الأمر بالسينما فى البلاد الإسلامية إلى أن أصبحت تغرق فى مشاهد الفتنة وتعيش فى أجواء الجريمة ، لاهمَّ لها فى الأغلب إلا اجتذاب العامة والدهماء واقتيادهم من غرائزهم ، ليتحقق لتجار هذا الفن ماينشدون من متعة وثراء .

● إن الحقيقة الماثلة أن ذلك الفن قد أضحى تجارة ، لا رسالة لها ولا هدف ، وأى تجارة يمكن أن تربح وتلقى الرواج مثل التجارة بإثارة الغرائز وخداع مشاعر الشباب واللعب بعقولهم ؟!

فاتجهت السينما إلى تجارة الغرائز فى نطاق واسع ، فى موضوعات مكررة يشبه بعضها بعضاً بلا مغزى ولا فكرة .

ليس أمام الكاتبين أو الممثلين إلا موضوع الحب والصلة بين الرجال والنساء .

وليس فى قضايا المجتمع ومشكلاته مايستوجب الاهتمام .

● إن عاطفة الحب الصادق معنى إنسانى شفاف ، يستطيع التناول الكريم أن يعبر عنه فى جوانبه الخيرة ، هادفاً نحو البناء النفسى الذى ينمى فى الناس عواطف الخير ومشاعر المودة والحنان .

ولكن هؤلاء لايفهمون من الحب إلا معنى رغبة الغريزة ، والاحتيال فى سبيلها ..

● وفى سبيل هذا تساق القصة مبعثرة مفتعلة ويتصنع التمثيل تافها يهدف للفتنة

والإغراء ، وتُتكلف المشاهد القبيحة التى ترضى النفوس المريضة ويُقحم الغناء المتكسر الساقط فى معناه وأدائه ..

وذلك عدوان على المجتمع كله ، وجناية على خلقه ومثله ، وتشويه لمعنى العاطفة ، وإشعال للغرائز واتباع للشهوات .

إنه غذاء مسموم ، يؤذى الشباب الذين تجتذبهم دور السينما فى كثير من بلاد الإسلام صباح مساء ، ويدفعهم إلى الفوضى الخلقية ويغريهم بالخنى ، ويزودهم بمشاعر السوء .

وهو كذلك إعنات للشباب الذى يقع فى الحرج بفعل هذا الإلحاح المتصل وهذه المشاهدة الخبيثة فيظل مضطرب الأعصاب شقى النفس ، أو يلجأ إلى مايزيده شقاء فوق شقاء .

وقد يبلغ الأمر به إلى الشذوذ العنيف الذى يفقد معه كل عاطفة ووعى !

● والفتاة كذلك يصيبها من الضرر مايصيب الفتى وقد يخدعها ماتراه فى مشاهد الخيالة عن الحقائق والمبادىء ، وقد يسهل لها طريق الانحراف عن جادة الطريق ..

فإذا علمنا أن مشاهدة الخيالة قد أصبح عملا ثابتاً فى برنامج الحياة لكثير من الشباب ، علمنا لماذا يشتد الانحراف ويكثر السقوط فى شتى الأنحاء ..

بل إن الأزواج والزوجات ، ليصيبهم ضرر السينما المثير بما يصور لهم فوضى العلاقات فى صورة محببة ، تتيح المتاع المتغير والشباب الدائم ، فى ظل النزوات الجامحة والأهواء المتبعة .

فأى جناية يجنيها ذلك الفن حين يتجه إلى إثارة الغرائز ؟!

بل إن هذا الفن قد أحدث لوناً خاصاً من ألوان البطولة التمثيلية ، وهو بطولة الإغراء . وكفى ذلك دلالة على اتجاهه وبياناً لمسلكه تجاه الغريزة ..

إن إغراء السينما إغراء خبيث ، يهدف إلى إطلاق الغرائز من عقالها ، ولا يقدم حلا ، ولكنه يترك المساكين المشاهدين نهباً للضياع ..

ولا يقتصر شر هذا الفن الوافد على مجال التمثيل . بل يتعدى ذلك إلى التأثير فى الحياة العامة ، حين تصبح الممثلات قدوة لبعض النساء ، يقلدنهن فى الزى والسَّمت والكلام . وبهذا يتحولن إلى مثل « أدنى » يشعن الفتنة فى كل مكان ، ويملأن الأنحاء بالهزل والتحلل من الضوابط والمثل ..

إن السينما بهذا المسلك الهدام ، تعتبر باباً ضخماً من أبواب الفوضى الخلقية بما تقوم به من إثارة وفتنة .

وهى من جهة أخرى باب لفوضى خبيثة تهز المجتمع وتشقيه .

فمنذ أن رأى الفتيان والفتيات مايحيط بالممثلين والممثلات من ترف وزينة وبريق ، اتجهت الأبصار إلى الوصول إلى تلك المكانة بأى طريق . ولو بالتضحية بالأخلاق والكرامة فى سبيل الشهرة والمجد والمتاع !

وأصبح العمل فى هذا السبيل أمنية يتطلع إليها كثير من الشباب بلا استنكاف عما يستلزمه هذا العمل من تهاون وتفريط ..

كما أصبح هذا المطلب وسيلة لاغتيال الشرف والعفاف ، وخداع النشء الجديد بالأمانى المعسولة والمال الوفير ..

وذلك هدم لبناء الأخلاق فى المجتمع ، وانصراف عن الجد والشرف إلى متاهات الزيف والخداع .

* * *

إن صلة السينما فى كثير من بلاد الإسلام بالدعوة إلى الفوضى الخلقية لا تنكر ، وما تزال تقوم بهذا الدور بإلحاح عجيب ..

وقد تكون هى المسئولة عما ساد الأسرة من تفكك واضطراب ، وما أصاب الشباب من انحراف وشذوذ .

ومعظم الخطر مع موجة الغزو الأجنبى هذا الجانب من جوانب التوجيه ومع اندفاع الملايين وراء ألوان الفتنة التى تموج بها تلك المناظر .

وإن علينا أن نقف دون هذا السيل الداهم ، وأن نصون شبابنا من وبائه ، فلا نقدم له إلا مايرعى القيم والأخلاق ، وما يثبت دعائم الإيمان والخير فى القلوب ليستقيم الشباب على طريق الإيمان .



المَواخيــرُ

● شاعت فى كثير من البلاد الإسلامية فى هذا العصر دور اللهو ، ورسخت أقدامها فى العواصم والمدن .

وفى القاهرة وحدها عشرات من هذه الدور ، واسعة القدرة والنفوذ ..

ويختلف إلى تلك الدور الآلاف من الرجال والنساء فتعمل عملها فى توهين رباط الحياء والعفاف فى النفوس وتصيبهم بأدواء خبيثة تسوقهم إلى سُبُل عوجاء ومتاهات مردية ..

إنها ساحات للانطلاق من كل قيد ، ومجاوزة كل حد يغشاها طلاب المتعة الحرام ، ممن يستحفون عن الأنظار ، ويقتحمون الأسوار .

● وهى عدوى أصابت المجتمع الإسلامى من جراثيم التقليد الجاهل للحضارة الغربية ، أو رؤية قشورها دون جوهرها ، وهى دلالة على هوان الوقت وضياع قيمة الحياة ..

وإلا .. فما معنى أن يبدِّد الإنسان وقته وماله فى سبيل الاطلاع على العورات وارتكاب المآثم التى لاتستقيم معها أولى أو أُخرى ..

وهذه الدور باب واسع لفوضى الغريزة .

فهى بيئة آسنة تنمو فيها جراثيم الخطيئة وتتعدد ألوانها ..

وفى مشاهدها المثيرة يفقد الإنسان زمامه ويفسق عن أمر ربه ويطمح إلى الحرام حين يرى الوجوه المختلفة ، والأجساد المتفاوتة ، والمفاتن المعروضة .

وفى ظلال المسكرات والمخدرات تفتح الأبواب المغلقة ، وتوقظ الفتن النائمة ، وينصرف الناس عن الحد والاستقامة إلى ألوان النزوات واللهو الحقير .

وفى العلاقات المنحرفة التى تنبت جذورها فى هذه البيئة تتهدم أسر ، وتقوض بيوت ، وتذوى أزهار ناضرة للاستقامة والصلاح .. !

ولا يقف خطر هذه الدور عند هذا الحد ، بل إنها تمتد بين الفساد إلى كثير من النساء اللائى تنزلق أقدامهن إلى هذه الهاوية ، استجابة لإغراء المال والمتاع ، واختيارا للطريق الميسور للثراء وبحثا عن الشهرة والنفوذ !

* * *

وما من حاجة تحمل الإنسان السَّوِىّ على غشيان تلك الدور وأكثر الذاهبين إليها من أصحاب علاقات السر ، ممن يجدون فيها الجو الملائم لما يبحثون عنه .

والفرد السوىّ لايحس بحاجة ما تدفعه إلى هذا العبث السخيف . ولكنها تجارة بالأعراض يروج لها من يستهدفون الكسب ، ومن يريدون تلويث المجتمع المسلم وإشاعة الفوضى فيه .

إن أولئك يجعلون من عرض المفاتن وسيلة لابتزاز الأموال ، وهى وسيلة دنيئة لاتبعد كثيرا عن البغاء ، وهى كذلك هدم لكل ماتزعم الحضارة الغربية أنها ترعاه للمرأة ، فأى كرامة وأى إنسانية وأى مساواة فى أن تتحول المرأة إلى مخلوق عجيب ، كل همه أن يثير السرور وأن يجلب المتعة ، لقاء أجر معلوم ؟!

وأى فرق بين هذا المسلك وبين نخاسة الرقيق التى طالما شنع عليها المشنعون ؟!

بل إن نظام الجوارى كان يحفظ آدمية الجارية . فيجعلها لسيد واحد ، لها قبله حقوق مشروعة .

أما هذه التجارة فإنها تجعل المرأة سلعة معروضة لكل قادر ، بلا حق ولا كرامة – إنها سوق خادعة لاتعطى المشترين شيئا . ولكنها تستثير فيهم الكوامن ثم تدعهم فى حيرة وحرمان .

وتلك جناية على العفاف ، وعلى الأسرة وجوها النظيف الطاهر ..

إن مأينفقه الرجل فى هذه الدور فى أيام معدودة قد يكفيه ليبنى أسرة ويسكن إلى زوجة ويأوى إلى ظل من الطمأنينة والحنان ..

فكيف ندع أولئك المبطلين يمارسون فى مجتمعنا هذا الهدم الخبيث ؟!

إن الإسلام لايعترف بلون من اللهو إلا رياضة البدن ، أو الهوايات النافعة ، أو السَّمر المشروع ، وفى ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه :

« كل مايلهو به الرجل المسلم باطل ، إلا رميه بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله ، فإنهن من الحق »(١) .

فما بالك بهذا اللهو المدمر الذى يقضى على جذور الحياء والعفاف ، ويصرف عن الإخلاص والجدّ ويحيل الإنسان إلى حيوان حقير !!

* * *

---

(١) رواه أبو داود والترمذى .

إن بقاء دور اللهو أمر شاذ فى مجتمع إسلامى ..

فإننا فى حاجة إلى الجد والعمل لاإلى اللهو والفساد .

وهذه الدور محاضن للأوباء التى تهدد أمتنا بخطر حقيقى ، ويوهن قواها ويفسد طاقتها .

ففيها يعيش اللصوص والسفاكون ، والخونة الذين لايقرون بدين ولا حق ولا وطن .

وفيها تسيل أنهار الأموال فى جيوب المجرمين والأفاكين العاطلين . ولئن كان الغرب بمخازيه وماديته وفوضاه فى حاجة إلى تلك الملاهى ، فلسنا فى حاجة إليها .

لسنا فى حاجة إلى فن شرقى أو غربى .. فكلاهما باطل وضلال ..

ولا نستطيع أن نقتنع – مهما قيل – بأن مايقدم فى هذه الدور فن وعلم وارتفاع ، فالمسألة ذات علاقة وثيقة بالغريزة ، مهما جادل المبطلون !!

وقد يرى بعض المفتونين أن هذا تفكير قديم يصدر عن مقاييس غابرة فليسموه مايشاءون .. لكننا لانستطيع تجاهل الحقائق ، أو الغفلة عن الواقع المشاهد الذى يكذب مايقولون .

لقد آن الأوان الذى نغلق فيه هذا الباب المفتوح للانحراف الخلقى فى مجتمعنا ، حتى نتقى أضراره وندفع أخطاره ، ونتيح لشبابنا النشأة الصالحة والجوّ الطهور .



مَسئوليــة الإذاعــة

أصبح للإذاعة بنوعيها المرئى والمسموع دور خطير فى التوجيه والتثقيف ، وأصبحت أداة فعالة للدعوة والإقناع والتحسين والتقبيح .

وقد كان المرجو أن تصبح الإذاعة فى الأقطار الإسلامية أداة طيعة تحرص على تثبيت مقومات الوجود الإسلامى وتبلغ رسالة الإسلام الخلقية والاجتماعية ، وتنأى على تيار الفساد والهدم الذى يشيع فى المجتمعات المادية التى لاتؤمن بالله ولا ترجو لقاءه .

ولكن المؤسى أن كثيراً من الإذاعات العربية التى كانت ترجى لدورها الخطير فى نصرة الإسلام وبث ضيائه فى العالمين ، أصبحت وسيلة من وسائل التحلل من أخلاق الإسلام ، وابتعدت عن مبادئه ومثله ، فأفسحت أوسع جوانبها للهو العابث ووقفت ساعاتها الطويلة على الأغانى المتكسرة ذات الكلمات الموحية بالإثم الداعية إلى الخطيئة صراحة وبلا استحياء .

وتصور أن بعض هذه الإذاعات تجعل للبرامج الدينية ثمانية فى المائة من بين ساعاتها فى الأسبوع بينما تخصص ستين فى المائة من ساعاتها لبرامج الترفيه !

وهذا يصور طغيان جانب اللهو على جانب الجد والمجاهدة .. وقد يتعلل بعض الناس بحاجة الإنسان فى هذا العصر إلى الترفيه الذى يذهب عناء الكدح ويخفف قسوة الحياة ..

ليكن .. فليس ذلك موضوع بحثنا الآن ، ولكن الذى يهمنا بيانه هو صلة هذا الترفيه المبالغ فيه بالدعوة إلى فوضى الغريزة أو تهيئة السلوك لذلك .

فليس الغناء محظوراً فى ذاته ، بل هو فى مناسباته المشروعة حين يسمو معناه ويجمل أداؤه ، ويتنزه عن الباطل ، دواء ناجع وزاد لطيف . ولكنه حين يسف لفظه ويسقط أداؤه ويسخف إيحاؤه ، يكون غذاء مسموما يفسد المشاعر ويتلف الأذواق .

وهذا هو ما بين أيدينا مما تموج به الإذاعات وتضيع به الأوقات .

إن أكبر جانب اتجه إليه الغناء المعاصر هو الجانب العاطفى الذى يصور العلاقة بين الرجل والمرأة .

وهو غرض قديم اتجه إليه الشعر العربى من قديم ، وامتلأ بصوره المتزاحمة من الوصل والهجر ، والفرح والحزن ، والابتهاج واللوعة . وقد كان هذا الجانب أضخم الجوانب فى الشعر العربى سواء كان غزلا تقليدياً أم صادراً عن عاطفة وإحساس .

وقد تنوع هذا الشعر من العلو إلى الإسفاف ، ومن الجمال والشفافية إلى الكدورة

والظلمة . وكانت مجالس الغناء فى الماضى تتناول هذه الأشعار وتنتقى منها ماتشاء وتحيله إلى ألحان وأنغام .

ولكن الغناء القديم لم يهبط إلى درك الأغاني المعاصرة سواء فى اللفظ أو طريقة الأداء ، كما كانت مجالس الغناء فى الماضى، ليس لها من التأثير العام ماللإذاعة اليوم حين تبدىء فى الأغانى وتعيد حتى تستقر فى الأذهان وتحفظ على كل لسان .

والحق أن الإذاعات فى مجتمعنا العربى قد أصبحت أداة طيعة فى يد السينما العابثة التى أشرنا قبلُ إلى أذاها وإفسادها للأخلاق ابتغاء الكسب الرخيص فالإذاعات تسد فراغها بالمادة الهينة من أغانى السينما التى تؤذى الناس من إيحائها السيء وهبوطها الفاجر . والتى تمتلىء بالألفاظ المستكرهة ، والألحان النزقة ، والأداء العابث ..

* * *

إن الأغانى العابثة تعتبر عاملا يساعد على تهيئة الأذهان للفوضى والخطيئة .

وما أدق تعبير بعض علماء الإسلام القدامى عن الغناء المثير بقوله :

« إنهُ رقْية الزنا » .

ونحن نرى الشباب فى كثير من المجتمعات يسير فى الطرقات يترنم بمقاطع الأغانى ويلقى بها على أسماع الفتيات، دعوة ونداء، ويجد ذلك وسيلة للتعبير عن خطرات النفس ونوازع الشيطان ..

أضف إلى ذلك أن سماع الأغنية الماجنة يوحى بالإثم ، ويوقظ الفتنة ويزين الخطيئة ويدفع إلى الفساد . ولذلك حرمها الإسلام .

ولسنا ندرى لماذا يستعاد ذلك الغناء ويشغل به الوقت ، بينما هو لايفيد خيراً ولا يهدف إلى نفع !

والأمر بحاجة إلى تنقية وتطهير ، فلابد من صَون الأسماع عن الأغانى المرذولة الألفاظ المستقبحة الأداء ، التى تتجه نحوالإثارة والفتنة والإغراء .

ولا يحول دون ذلك أن تكون الجماهير قد تعلقت بهذه الأغانى وألفت سماعها ، فذلك من تأثير الجراثيم التى تحملها فتذهب الألباب وتعمى عن الصواب .

ولا يفوتنا هنا الحديث عن الإذاعة المرئية « التلفزيون » وإن كان حديث النشأة قريب العهد ، وقد كنا نأمل أن تكون برامج تلك الإذاعة شيئاً جديداً بعيداً عن الأجواء التى صنعها التافهون العابثون . ولكن سرعان ماسارت فى التيار المائج دون أن تختط لنفسها مجرى جديداً فى توجيهات الخطيئة والانطلاق .

وسرعان ماظهرت فيه توجيهات الخطيئة والانطلاق .

لقد عجبنا كيف تسرب هذا كله إلى تلك الأداة ، وكيف استطاع هذا الاتجاه السيطرة عليها ؟!

إن المحتم أن تكون الإذاعة المرئية فى كل بلد مسلم ، عاملا إيجابياً فى بناء المجتمع وقيادته نحو الأهداف التى تبتغى لأمة تؤمن بالله ورسوله وتتخذ فى الحياة سبيلا يرضاه الإسلام .

وإلى جوار الترويح يجب أن تكون الثقافة والإرشاد ..

فهل يتفق هذا مع عرض الأفلام الماجنة والمشاهد الفاضحة فتتسرب جراثيمها إلى الأسر والمجتمعات ؟!

وتلك جميعها أبواب للفوضى الخلقية لابد أن توصد ، ولابد أن تكون الإذاعة المرئية فى كل بلد مسلم تعبيراً عن إرادة الأمة الإسلامية المتمسكة بدينها ، ولا ينبغى أن تكون صورة لما فى الغرب المادى من فساد وانحلال .

ولابد أن تسهم وسائل التوجيه جميعا فى تثبيت الدين الذى هو سر قوتنا وحفظ قيمنا الأصيلة ، وأن تنأى عن التيار المنحل الذى يهددنا بالفناء ، فذلك هو الأحرى بأدوات التوجيه الرسمية فى بلاد عربية مسلمة تحمل أمانة الأجيال .



الصحافـة المتكسبــة

لقد اتجهت الصحافة فى كثير من المجتمعات الإسلامية اتجاهاً سيئاً ، جرّ على المجتمع كثيراً من الخسار . حين أضحت تجارة ، يهدف أصحابها إلى الربح ويتنافسون فيه ، ويسلكون فى ذلك كلَّ سبيل ، ولو كان فيه أذى المجتمع وإشاعة الفوضى فى أنحائه .

وكانت مسألة الغريزة من أهم ماشغلت به الصحافة العربية المعاصرة وأثرت عن طريقه .

كانت الصور الفاضحة ، أهم سلعة تاجرت بها الصحافة فى بعض بلاد العروبة ! فقد وجد القائمون عليها أن هذه الصور تجذب وتغرى ، فهى كفيلة باستمالة القرَّاء فيكثر التوزيع وتضخم الثروة ! .

وسواء كانت هذه وسيلة لغاية ، أو كانت غاية أحياناً . فقد سارت الصحف فى الطريق إلى نهاية الشوط ، غير عابئة بمبدأ ولا خلق ، ولا مشفقة على فرد أو مجتمع فأصبحت أكثر المجلات لاتخلو صفحة منها من صورة يقصد بها إلهاب الغرائز واستغلال حرمان الشباب . وبهذا استطاعت أن تسير وتنتشر وتجمع المال الكثير .

ومن هنا فإننا نعتبر هذا اللون من الصحافة بابا من أبواب الفوضى ، يثير الفتنة ويدعو إلى الفساد ..

* * *

● واصطنع بعض الكتاب الصحفيين إلى جوار الصور المغرية ألوانا من التوجيهات الخاطئة فى صور شتى ..

فأحيانا كلمات صريحة تهاجم التقاليد والحياء ! .. وتدعو إلى التجديد والتطور ..

وتحت اسم التقاليد والرجعية يدخلون كل ماورثناه من حق وخير ، وكل مانؤمن به من هدى ونور ..

فالمهم لديهم أن تخرج المرأة إلى الشارع والملهى وأن تتحرر من كل قيمة ومبدأ ، إلا مبدأ التقليد الأعمى والانصياع الذليل لما يريده الغرب ويدعو إليه .

وأحيانا دعوات غريبة هادمة ، كدعوة البغاء التى ألح فيها بعض الكاتبين وبالغوا فى تزيينها .

وأحيانا دفاع عن المنكرات والفواحش .. كالخمر والميسر ، اللذين دافع عنهما بعض الصحفيين فى مصر بحماس حين هاجمها العلماء والمصلحون .

وأحيانا إجابات عن أسئلة عاطفية مصطنعة ، بأجوبة منكرة ذات إيحاء مفسد وتوجيه خبيث .

وإحيانا تهكم بالعفاف والاستقامة، وسخرية من الصون والتحرز ، بما لا يدع مجالا لطهارة ولا زكاء .

* * *

● واتخذت بعض الصحف من الأزياء وسيلة لامتلاك قياد النساء فى المجتمع ..

فجعلت حديث الأزياء موضوعا ثابتا ، ينقل فيه كل مااستحدثه الغرب وكل ماابتكره « خبراء الجمال » لكى تستلفت المرأة الأنظار وتظفر بالإعجاب . وكل صحيفة تحرص على أن تقدم فى ذلك شيئاً أعجب وأغرب ، كى يكون لها فضل السبق والابتكار .

ولم تراع الصحافة فى نقل الأزياء ، طبيعة المجتمع الإسلامى واختلافه عن المجتمعات الغربية فى حقيقة التكوين وحقيقة الاتجاه ، فأخذت تنقل كل مايصدر عن الغرب ولو كان شذوذا أو انحرافا ، مما أدى إلى موجة التقليد السيئة ، التى شملت النساء المسلمات فى كثير من الأقطار ، فأدى ذلك إلى إلهاب الغرائز وإيقاظ الشهوات ، وتوجيه كثير من الشباب إلى إيذاء النساء فى الطرقات والمجامع .

ولا تزال بعض الصحف تتنافس فى تقديم الأزياء الغربية الجديدة ، بصورة كأنها إلزام ، تطالب النساء باتباعها وإلا خرجن من ساحة التجديد والارتقاء ، وانتكسن فى الرجعية والغباء !

* * *

كما اتخذت الصحافة من الغانيات مادة حية لتقديم ألوان مختلفة من الأحاديث اللاغية المصحوبة بالصور الفاضحة المرذولة ..

ويشتد الخطب حين يكون الحديث مع إحدى الممثلات العابثات فيخرج الحديث إلى التصريح بدل التلميح ، وإلى الكشف بدل الخفاء .

وهنا ترى صورة التدنى إلى دركات الحيوانية ، الذى لايقصد به إلا دفع للفوضى والإغراء بالآثام ..

ولا زالت الغانيات وأشباههن يتخذن من الصحف وسيلة للظهور والشهرة ، حتى تصير أخبارهن وأحاديثهن على كل لسان !

وهذا خطر مفزع ، يعقد محالفة بين الصحافة وبين الفوضى الخلقية ، ويفرض على الناس متابعة أخبار العابثات والاستماع للتوجيهات المنحرفة والإيحاءات التافهة اللاهية التى تذيب فى الأمة قوى الكفاح وتصرفها عن الجد والنجاح .

● ورغم أن الصحف فى بعض البلدان الإسلامية فى يد الدولة إلا أنها لما تستقم بعدُ على الطريق .

● إن كثيراً من الصحف فى البلاد الإسلامية مازالت فى صورة متخلفة عما ينبغى أن تكون عليه من الاتجاه نحو التوجيه السليم والبناء الراشد واحترام عقائد الإسلام ومثله ..

فلا زالت تتاجر بالغريزة .. بالصور المنكرة ، والأحاديث اللاهية .. بل إن هناك مجلات وقفت صفحاتها على هذه التجارة الخاسرة مستهينة بالمثل والأخلاق .

● ولن تنتهى تلك المحنة إلا بجيل جديد من رجال صحافة المبدأ والرأى ، الذين لم تنعقد الصلات بينهم وبين الغانيات ، ولم يألفوا حياة المواخير ولم تستعبدهم الخمور والشهوات ، ولم ينطبعوا بطابع الحياة المادية ولم يفتتنوا بأنماط السلوك فى المجتمع الغربى الذى يعبد اللذة ويكفر بمبادىء الأخلاق ..

إنها مسئولية الصحافة فى البلاد الإسلامية جميعاً تنظر بعين التقدير للعواقب إلى ثمرات هذا الغرس الذى يغرسه كتابها، وأن تدرك إلى أى مدى يتأثر الناشىء بما يرى ويقرأ، وكيف يتصور مثله ويختار مبادئه من هذا الطريق ..

فعليها أن تطهر نفسها من كل دنس ، وأن يكون ولاؤها للأمة ومبادئها ، لا لعدوها وأهدافه ، وعلى الدولة فى كل مجتمع إسلامى أن تقف حارسة على العقيدة والخلق وأن تحول بين الصحافة وبين التوجيه الضال للشباب بما تنقله من سموم الانحراف ، تبتغى بذلك تملق الغرائز وإعجاب الغوغاء ، ولا تشعر أنها تحقق أهداف الأعداء وتأتى على بنياننا من القواعد .

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾



المخـــدرات والمسكـــرات

أما المخدرات والمسكرات فهى باب خطير ، بل هى مفتاح الخطايا وأم الخبائث ، ولذلك حرمهما الإسلام ، لما فيهما من غيبة للعقل ويقظة للهوى ، فيفلت الزمام من يد الفكر ويصبح طيّعاً فى يد الشيطان ..

وهما يقترنان دائماً بالتطلع إلى المزيد من الشهوات والتهالك عليها بأى طريق، على نحو يهلك الجسد ، ويرهق الأعصاب ، ويثير الفوضى فى حياة الإنسان .

وبقاء هذين الداءَين – المخدرات والمسكرات – من أسباب الفوضى الخلقية التى تغشى المجتمع الحديث وتسبب العناء للفرد والمجتمع .

* * *

وقد فطنت الأمم إلى آفات المخدرات وغوائلها المرهقة المبيدة للحياة ، المبددة للطاقة والنشاط ، فحرمت أكثر المجتمعات تداولها وتناولها ، وحظرت تجارتها بقوانين حازمة ، تحمل أقسى العقوبات .

وهذا اتجاه حسن ، يحمى البشرية من الهلاك ويقيها الفوضى التى تقود إليها المخدرات .

وفى المجتمع تكافح المخدرات كفاحاً عنيفاً بوسائل شتى . ولكنها مع ذلك متداولة منتشرة .. !

والحق أن الذى يستطيع أن يحارب المخدرات ويقضى عليها فى يُسْر هو الشعب المسلم حين يحاط علماً بآفاتها وغوائلها ، وما تجره على الأمة من خسار ، ويُطلب منه باسم الإيمان أن يبذل جهده فى القضاء على هذه السموم المهلكة التى يثرى من روائها شرذمة ضالة ، على حساب أمن المجتمع وسلامه . وعندئذ تستطيع الأمة أن تفعل الكثير من أجل تجفيف منابع هذه السموم ووقاية المجتمع من خطرها المدمر .

فإن القانون وحده لايكفى ، بل لابد من استثارة عزائم المؤمنين لحماية مجتمعهم مما يتهدده من وباء، وليس هناك حافز أقوى من ذلك، فدون هذا كلُّ قوة وبأس !

* * *

ولكن العجيب الذى يلفت الأنظار هو موقف بعض الدول الإسلامية من الخمر أمِّ الكبائر ..

نعم .. فلماذا تحارب المخدرات ، ولا تحارب المسكرات ؟

إن الخمر داء منهك وطريق معوج يؤدى إلى فوضى الخلق وفوضى المجتمع ..

فلماذا تقف منها المجتمعات الحديثة هذا الموقف المائع ، الذى يرى الخطر فلا يتداركه ، والوباء فلا يقضى عليه قبل أن ينتشر ويفتك !

إن كل الأديان السماوية قد حرمت الخمر دون اعتبار لما يلغو به بعض المجادلين بالباطل من موقف المسيحية من الخمر ، فذلك افتراء على دين الله ، وتملق للشهوات والأهواء .

﴿ ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون (١) ﴾ .

اما الإسلام فقد شدد النكير على الخمر وحاربها بشتى الوسائل .

فهو ينفر منها ويحذر من غوائلها المتلفة للحياة والعفاف ..

وتلك هى الخطوة الأولى التى تخاطب و الإنسان عقله وتثير فيه جانب الحرص على نفسه وماله .

عن عثمان رضى الله عنه قال : « **اجتنبوا الخمر ، فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم يتعبد ، فعلقته امرأة غوية ، فأرسلت إليه جاريتها تطلبه للشهادة فانطلق معها ، فجعلت كلما دخل بابا أغلقته دونه ، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر . فقالت : إنى والله مادعوتك للشهادة ، ولكن دعوتك لتقع على ، أو تشرب من هذه الخمرة كأساً ، أو تقتل هذا الغلام . قال : فاسقنى من هذه الخمر كأسا ، فسقته ، قال : زيدونى ، فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس . فاجتنبوا الخمر، فأنه والله لا يجتمع والإيمان أبدا إلا يوشك أحدهما أن يخرج صاحبه !** » .

ومن أجل ذلك كان من يصر عليها مطروداً من الرحمة محروماً من الخير ..

وفى الحديث « **لا يدخل الجنة منّان ولا عاق ولا مدمن خمر** » (٢) .

وكان رسول الله ﷺ يقول « **لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه** » (٣) .

وقد سدَّ النبى ﷺ باب الاحتيال على شرب الخمر تحت أى اسم من الأسماء ، فحمل التحريم منوطا بوجود الإسكار أياً كان المسكر وأيا كان نوعه فقال :

« **كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام** » (٤)

---

(١) سورة آل عمران ٧٨ .

(٢) رواهما النسائى .

(٣) أبو داود والترمذى .

(٤) رواه الخمسة .

وقد سأله رجل من حيشان باليمن ، عن شراب يشربونه بأرضهم يقال له المزر ، فقال ﷺ ، « **أوَمسكر هو ؟ قال نعم ، قال : كل مسكر حرام ، إن على الله عز وجل عهدا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال . قالوا : يارسول الله وما طينة الخبال ؟ قال : عرق أهل النار أوعصارة أهل النار** »[1] .

وقد نبه الرسول صلوات الله عليه إلى أنه سيكون من أمته من يستحلّ الخمر ويسميها بغير اسمها ، فقال : « **ليشربن نَّاس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها** »[2] .

وبعد الإرشاد والتبصير يأتى موقف العقوبة التى تزجر أصحاب العزائم الخوارة والإرادة الواهية ..

وقد جعل الإسلام للخمر عقوبة زاجرة ، حتى لا يقترب أحد من هذه الحمأة التى تقتل فى الإنسان عقله وخلقه ..

وهى أربعون جلدة ، فقد « **أتى رسول الله صلوات الله عليه برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدتين نحو أربعين** »[3]

ويجوز للحاكم أن يزيد فى هذه العقوبة إلى الثمانين ، كما صنع عمر بن الخطاب رضى الله عنه « فقد جلد النبى فى الخمر بالجريد والنعال ، ثم جلد أبو بكر أربعين فلما كان عمر ودنا الناس من الريف والقرى ، قال ما ترون فى جلد الخمر ؟ فقال عبدالرحمن بن عوف : أرى أن تجعلها كأخف الحدود (وهو حد القذف بالزنا) فجلد عمر ثمانين »[4] .

أما إذا انتهى الأمر بشارب الخمر إلى حد الإدمان وأصبح قدوة سيئة فى المجتمع ، من شيوع الفاحشة . فقد روى ابن عمر ونفر من الصحابة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « **من شرب الخمر فاجلدوه ، ثم إن شرب فاجلدوه ، ثم إن شرب فاجلدوه ، ثم إن شرب فاقتلوه** »[5] .

وذلك دليل على خطر الخمر على الكيان الإنسانى حتى ليفقد المدمن عليها حق الحياة ..

● ولا ندرى لماذا تبقى الخمر مباحة حتى اليوم فى كثير من الأقطار العربية والإسلامية !

إنها فى نظر المفتونين بالحضارة الغربية المتقبلين لكل مظاهرها شارة من شارات التقدم والارتقاء ..

مع أنها من منطق العقل والعلم انتكاسة خطيرة للسلوك الإنسانى وإهلاك للنفس والغير ينأى عنه العقل الصحيح ..

---

(١) رواه مسلم والنسائى .
(٢) أبو داود والنسائى وصححه
(٣) رواه الأربعة .
(٤) رواه الأربعة .
(٥) النسائى والترمذى .

ويعجب كذلك أنه كلما قام ناصح شفيق ونذير صادق فى هذه الأقطار المبتلاة بالآفات ينصح قومه أن يقوا أنفسهم وأهليهم هذا الوباء القاتل وأن يوصدوا هذا الباب المفتوح للشرور والجرائم ، يقوم فى وجهه الذين نصبوا أنفسهم لتبديل ملامح هذا المجتمع الإسلامى وتعفية آثار الإسلام فيه . يدافعون عن الخمر فى حماس وإصرار ، مهددين منذرين بأنه التخلف والجمود إن اتبعنا توجيه الإسلام وسلكنا سبيله ..

● وفى بعض الأقطار الإسلامية قامت الحملات الصحفية للدفاع عن الخمر والمطالبة بالإبقاء على مواخيرها ، ووجد بعض الكتاب لديه من التبجح ما جعله يجهر على الملأ بالبهتان ويستعلن بالأباطيل ..

كتب بعضهم عن منافع الخمر للصحة ! مع أن الأطباء يجمعون على ضررها ويحذرون من غوائلها ..

وعن حق المسيحيين واليهود الذين يعيشون فى الأقطار الإسلامية فى شرب الخمر ! وكأنما المجتمع الإسلامى مطالب أن يخالف مبادئه وأن يلوث مشارعه من أجل ممالأة أهواء الأقليات ، التى يحرم دينها عليها الخمر فى حقيقة الأمر ..

وعن حق السائحين فى توفير الخمور لهم فى بلاد الإسلام ! كأنما يقدم هؤلاء للسكر فى بلادنا لا للمعرفة والنظر ، وكأنما علينا أن نبيع مبادئنا ونوهن أخلاقنا لنكسب أموالا كثرت أو قلت ..

وكله جدل حقير ، لا حجة له ولا منطق وراءه .. ولكنها مأساة الصحافة التى تعتنق مبادىء الإسلام والتى لا ترجو له وقاراً ولا ترعى له كرامة[1] ..

والحق أنه ما من عذر أو حجة للمجتمعات الإسلامية التى تبقى على الخمر ، وهى تبدد الطاقات وتهد العزائم وتفسد الأخلاق ، مع ما عليه الأمة الإسلامية من ضعف وتخلف فكيف تترك المواخير تمتص الأموال والأخلاق ، وتبث فينا الوهن والعياء .

لقد أدركت مجتمعات كثيرة لا تدين بديننا أضرار الخمر وحاولت تحريمها أو تضييق نطاقها ، ولو بدافع اقتصادى توفيراً للجهود والطاقات .

وقد حاولت أمريكا فى تاريخنا المعاصر أن تحمى مجتمعها من شرور هذا الداء . فحرمت الخمر ..

ولكن القانون لايكفى .. والدافع الخلقى والروحى للشعب كان ضعيفاً ، فتخاذلت الدولة أمام إصرار الشعب على هذه المفسدة .

---

(١) انظر فى ذلك ما كتبه سلامة موسى والتابعى وأشباههما فى جريدة الأخبار المصرية سنة ١٩٥٨ .

ولكن الأمة الإسلامية المعاصرة – تستطيع القضاء على الخمر فى حزم ويسر ، حين تشيع هدى الإسلام فى المجتمع ، وتستعين بتوجيه الإسلام ووسائله الفذة فى الهداية والإرشاد .

وقديما تحرر المجتمع الإسلامى الأول من الخمر عن طيب خاطر امتثالا لأمر الله وتصديقاً بآياته ، بعد أن بين القرآن للمسلمين غوائل الخمر ، وقارن بين ما فيها من منفعة وما تجره من دمار وخسار :

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل : فيهما إثم كبيرٌ ومنافعُ للناس ، وإثمهما أكبرُ من نفعِهما ﴾ .

فقد قررت الآية أن فى الخمر شيئاً من المنفعة المادية لطائفة قليلة ، كالذين يبيعونها أو يعملون فى مواخيرها ولكن أذاها للمجتمع كله أشمل وأعم .

وأمام هذا تقتنع العقول وتسلم ، ولا يكابر المؤمنون ولا يعاندون ..

وهذا ما كان من المسلمين الأوائل حين نزل التحريم .. فى الكتاب الكريم ..

فعندما نزل قوله تعالى :

﴿ إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلام رِجسٌ منْ عملِ الشيطانِ ، فاجتنبوه لعلكم تُفلحون . إنما يريد الشيطانُ أن يوقِعَ بينكم العداوةَ والبغضاء فى الخمرِ والميسرِ ، ويصدَّكُمْ عَنْ ذِكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون؟ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذَرُوا ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾(١) .

أقبل المسلمون الأولون على الخمر يسكبونها ويكسرون آنيتها ، وتحرروا تحرراً تامًّا من سلطانها ، ودخلت الخمر دائرة المحرمات التى يمتنع عنها المؤمن بمقتضى عقيدته وإيمانه ، ولا يقع فيها إلا إذا غفل عن دينه واستذله شيطانه ، كما يقول الرسول ﷺ :

« .. ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »(٢) .

فسلطان العقيدة الاسلامية فى نفس المسلم لا تصارعه قوة أخرى ، وأثرها فى السلوك الإنسانى لا يعد له أثر .

وإن مسئولية الدولة فى كل بلد إسلامى أن تحارب الخمر وتحمى المسلمين من آفاتها ، التى تفسد الخلق وتهدد الحياة ، وتثير فى المجتمع الفتنة والاضطراب .

* * *

---

(١) سورة المائدة ٩٠ – ٩٢ .

(٢) رواه البخارى

إن المخدرات والمسكرات باب خطير يهدم بناء الأخلاق ، لابد من إيصاده وتعفية آثاره ، فهو يهدد العفاف ويهد القوى ، ويبث فى المجتمع الوهن والضعف ، أحوج مايكون للحياة والقوة والنماء .



أَدَبُ الخَطِيئَـــة

فن القصة والرواية من أجناس الأدب المستحدثة التى أفادها الأدب العربى فى هذا العصر تأثرا بالآداب الأوربية .

وان كانت القصة معروفة عند العرب منذ القديم بمعنى الحكاية التى تروى ماوقع والقصة أداة هامة ذات أثر فعال فى التوجيه والإيحاء . فإن فيها من تصوير نماذج الحياة ، ماتصل به إلى النفس عن قرب وتستحوذ به على الفؤاد ..

والقرآن – كتاب الله المعجز – قد اتخذ من القصة وسيلة لعرض حقائق الإيمان ، وتعميق جذورها فى القلوب ، وفى سرد حقائق الكون وعبر التاريخ خلال الأجيال .

﴿ نحنُ نقصُ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنتَ من قبله لمن الغافلين ﴾(١) .

● ولكن كثيرا من الكتاب فى هذا العصر ، اتجهوا بها وجهة خاطئة ، ابتغاء الشهرة والكسب .. اتجهوا إلى التجارة بحديث الغريزة واستغلال فنونه فى صور متشابهة وألوان مختلطة ، تتيح لهم المادة السهلة والربح الوفير . وأصبح لهم قراء كثيرون يتابعون مايصدر عنهم ، من الفتيان والفتيات الذين يجدون فى الأدب الفاضح متعة مسمومة ، تدفع إلى تطبيق الأحلام وتحقيقها فى عالم الواقع ، بعد أن تنشأ وتنمو فى عالم الخيال .

* * *

إن المرجوّ من الكاتب الذى يقدر مسئولية الكلمة أن لايتدنى إلى استغلال الحرمان واتخاذ إثارة الغرائز وسيلة للشهرة والنجاح .

ولكن عبادة المادة تدفع بعض الكتاب إلى هذا الاتجاه المرذول .

والأمر يسير .. فما على الكاتب من هؤلاء إلا أن يختار صورة من الصور الممكنة الحصول ، ليبث خلالها مشاهد الإثارة ، التى تصور الحرمان وتصور معه مايلجأ إليه المحروم . فالمهم عنده مابثه خلال القصة من سموم وما أوحى به من أفكار ولو كانت مدمرة للشباب ، قاتلة للعفاف والمروءة فتلك معان لا وجود لها فى عقول هؤلاء الكتاب وأقلامهم .

---

(١) سورة يوسف ٣

● وبهذا النهج الخبيث يشق هؤلاء طريقهم فتفتح لهم الأبواب ، وترفع لهم الرايات ، فيبثُّون فتنتهم فى الشباب ، ويلطخون بها المجتمع ، ويجمعون الأموال الطائلة ، غير عابئين بما جنوه على أمتهم من دمار وخسران .

إذا اتضح الأمر على أنه تجارة بهذه الصورة ، خفّ وقعه وانكشفت أهدافه ..

ولكن العجيب أن يدعى هؤلاء أنهم أصحاب رسالة ومبدأ ، وزعامة وتوجيه !

فمن المؤسى أن يتصدر هؤلاء الكتاب ميدان قيادة الشباب ، ويتصدروا لتوجيههم وحل مشكلاتهم مع أنهم يزيدون مشكلات الشباب تعقيدا ووهما ، مما ينتج الاتجاهات الضالة والأفكار المنحرفة ، فهم أعداء الشباب وصانعو مأساته ..

وهل ينبغى المستقل المنتهز شفاء ضحاياه الذين يخدعهم ويستنزف قواهم ؟!

إنه يتمنى أن تظل الضحايا أبدا فى ضلال وغى لاتعى ولا تفيق ليكون له المزيد ..

* * *

ومن كتاب أدب الخطيئة ، من يزعم أن ما يصدر عنه إنما هو إبداع فنى بحت ، وتعبير عن الصور التى تتراءى له .. فلماذا اللوم والتعنيف ؟

إنه أديب ملهم يرسم صورا تجول فى نفسه ، وتلح بخياله ، فهل من حجْر على الفنان .. ؟!

تلك دعوى يدافع بها بعض الكتاب عن أنفسهم وهم بهذا ينقلون المسألة من عالمها الواقعى إلى عالم آخر من صنع الخيال . فيدخلون فى الجدل حول الفن للفن ، أو الفن للحياة . وهو جدل عقيم لاجدوى منه .

فهل يمكن عزل الفن عن الحياة ؟

أو هل يمكن أن يقوم الفن بهدم الحياة ؟!

إن الفن نتاج بشرى ، وإذا تعارض هذا النتاج مع مصلحة المجتمع وأضرّ به ، فإن من المحتم على الفنان أن يكبح جماح فنه الذى يهدد الحياة بخطر الفوضى والانحلال .

إن من المؤسف أن يعمد كثير من الكتاب والشعراء المعاصرين إلى معالجة موضوع الحب متصلا بالشهوات والغرائز وأن يهبطوا به إلى درك حقير ، باسم التعبير عن الواقع ومعالجة مشكلات الإنسان المعاصر ، ومادروا أنهم بذلك يظلمون الأدب كما يظلمون الإنسان .

فهم يظلمون الأدب حين يجعلونه يتصل بغرائز دنيا أو يعبر عن عواطف مسفة ، فتنحط قيمته ويهون شأنه ، وقد أشار إلى ذلك نقاد العرب أنفسهم ، على نحو مايقول « بند توكر وتنبيه » فى كتابه « الشعر » ناعيا على الشعراء المسفين :

« فلم تصر الشخصية محددة عن طريق نتاجها الشعرى ، بل صار الأمر على النقيض من ذلك . إذ صار النتاج الشعرى هو المحدد بصميم الحيوانية الفردية التى غرق فيها وضاعت معالمه ، وحين يتحدثون عن الشعر أنبل الشعر ، يتحدثون عنه وقد أصابته هذه العدوى وفاضت منه رائحة التقزز ، رائحة الجنس والغريزة الحيوانية المفترسة »

فالأدب هو المجال الذى يرتقى فيه الإنسان بوجدانه وفكره ، ويحلق فى أفق رفيع من المثل والصور مايعجز عن تحقيقه فى عالم الواقع ، لاأن يصبح الأدب صورة كريهة لواقع مسف ومجتمع مضطرب ..

أما مجاراة المذاهب الغربية التى تعبر عن مجتمعاتها القلقة المفتونة بالشهوات البعيدة عن القيم والأخلاق ، فهو اتجاه يبتعد بنا عن طابعنا الأصيل ويفصلنا عن تراثنا العظيم ..

إن أدب الخطيئة ليس إبداعا ولا فنا .. بل هو عمل أدنى من ذلك إنه فن تجيده الغوانى وتبرعن فيه ، أكثرمما يجيده الكتاب والأدباء ..

والمؤسف أن كثيرا من قصص الخطيئة هذه ، يعرف طريقه إلى السينما التى تتباهى به وتزهو بأسماء كتابه ..

ومن هنا يصيب المجتمع ضرر هذا الأدب مرتين .. حين ينشر ، وحين يصور ويمثل ، وهى أشد وأنكى ، فآثاره السيئة حينئذ تصيب الشباب على نطاق واسع ، يشمل الرجال والنساء والقارئين والأميين ، وبذلك تعمق جذور هذا الأدب الخاطىء فى المجتمع ، وتنمو ثمارها المريرة فى الحياة والسلوك ..

إن من المحتم وقاية الشباب من هذا الباب للانحراف الخلقى الذى يغرر بالشباب ويبث فيهم الأفكار الخاطئة ، والاتجاهات الضالة ، ويغريهم بالانطلاق الهدام والحرية الفوضوية، التى لا تصلح معها حياة ولا يستقيم للإنسان بها وجود ..

---

(١) الشعر لكروتشيه ص ١٤٦ - ١٤٧ نقلا عن النقد الحديث للدكتور محمد غنيمى هلال ص ٤٠٠ .

الاختــلاط والحــب الزائــف

ذلك باب واسع لفوضى الأخلاق يكثر صرعاه ويربو على الأيام ضحاياه .

ومع هذا فمازال هناك من يمارون فى خطره ويذودون عن كيانه ، ويردون عه هجمات الناصحين والمحذرين .

إن بعض الناس فى هذا العصر يخدعون فى فهم حقيقة الاختلاط والحب ، ولا يستطيعون تدبر وصايا الإسلام التى توصد هذا المنفذ الخطير .

إنهم يفهمون أن هناك رأيين فى هذا الموضوع :

رأى الإسلام الذى يرى حبس المرأة وراء أسوار حصينة ، ويباعد بينها وبين الحياة ، ورأى الحضارة المعاصرة التى أعطت المرأة الحرية ووهبتها الإحساس بالحياة والمشاركة فيها !

وذلك خطأ بين ، فلا الإسلام يرى هذا الرأى ، ولا الغرب يعلو بالمرأة أو يبتغى سعادتها وأمنها حين يفتح لها مجالات الملاقاة ، ويجتذبها إلى مباهج الحياة ويفتن فى افتعال جوانب اللهو والمجون والطيش التى يغرى بها المرأة ويجبها إليها .

إن الإسلام قد وضع قواعد الاختلاط المشروع الذى تقتضيه الحياة الفاضلة ، وتستدعيه المصالح الجادة .

إن حبس المرأة خلف أسوار حصينة ليس من خطة الإسلام ، فإنه لا يحل المشكلة ، ولا يتفق مع مطالب الحياة وحاجاتها .

وها نحن نرى القرآن لايذكر حبس المرأة فى البيت إلا عندما تحيط بها الريبة . وتنغمس فى الفاحشة ، وتصبح خطراً على سلامة المجتمع وعفافه :

﴿ واللاتى يأتينَ الفاحشة مِنْ نسائكم فاستشهدُوا عليهنَّ أربعة منكم ، فإنْ شهدوا فأمْسكوهنَّ فِي البيوتِ حتى يتوفاهنَّ الموتُ أو يجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً ﴾[1] .

وقد كانت هذه عقوبة الفاحشة للمرأة فى صدر الإسلام قبل فرض حد الجلد أو الرجم !

فهل يتصور من الإسلام الذى كان يجعل إمساك المرأة فى البيت عقوبة لها على الخطيئة ، أن يرى إمساك كل النساء فى المجتمع وراء الجدران ؟!

● لقد حدد الإسلام للمرأة رسالة وكلفها كالرجل ، وأباح لها الخروج وفق القواعد

---

(١) سورة النساء ١٥

الشرعية إلى المجتمعات فى المواضع التى تستلزمها حاجة التكليف وضرورة الحياة .

فالمرأة المسلمة كانت تشهد الصلاة فى المسجد خلف رسول الله ﷺ وأمامها صفوف الرجال .

وكانت تغشى مجلس الرسول صلوات الله عليه وفيه الرجال لتسأل عن أمر دينها أو لتستكفى مما يهمها فى دنياها .

وكانت تشهد القتال وتخرج مع الجيش لتؤدى رسالة وتقوم بواجب .

وكانت تغشى الأسواق لحاجة البيع والشراء .

ومجالسَ القضاء للنزاع أو الشهادة .

ولم يعرف أن الإسلام قد حال بين نسائه وبين الحياة أو أغلق عليهن منافذ الضياء والسناء !

ضوابط للاختلاط :

ولكن الإسلام على يسره وتقديره لضرورات الحياة وحدْبه على مصالح الرجال والنساء ، قد حسم أمر الاختلاط المريب وأغلق منافذه وشدد النكير عليه .

فهو يحرم خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية عنه ، لأنه يرى أن هذا طريق غير مأمون يؤدى غالباً إلى مناكر وخطايا مهولة ، وأن الغريزة تستيقظ دائماً فى الخلوة فتجترئ وتتقدم حريصة على الوصول .

ولهذا قال الرسول ﷺ .. « **لايخلون رجل بامرأة** » (١) .. ويرتب الإسلام على هذا منع مظاهر هذه الخلوة ومظانها حتى فى مواطن العبادة وأغراض الحياة المهمة ..

قال رسول الله ﷺ :

« **لايخلون رجل بامرأة ، ولا تسافر امرأة إلا ومعها محْرم** » .

فقام رجل فقال : يارسول الله « اكتُتِبْتُ فى غزوة كذا وكذا ، وخرجت امراتى حاجّة . فقال : اذهب فحجّ مع امرأتك »(٢) .

ويحرّم الإسلام اختلاط النساء المتبرجات بالرجال .. فهو وإن لم يكن معه خلوة ، مظنة لخبث العلاقة وسوء الطويّة .

وفى هذه يقول الله سبحانه : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن – أى أزواجهن – أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى**

---

(١) البخارى .

(٢) البخارى .

أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾[1] .

وهذا إجراء وقائى لايعنى إلا تضييق فرص فساد الصلات بين الرجال والنساء وحمايتهم من التلوث والدنس .

فالرجل حين يرى امرأة متبرجة لاتراعى حدود الإسلام ، لايرى فيها إلا أنثى تستعرض مظاهر فتنتها وتستدعى الإعجاب والتطلع . وهذا كفيل بإثارة الفتنه والإيحاء بمعانى الإثم ووساوسه .

ومن هنا فإن للمرأة المتسترة المحتشمة أن تغشى المجتمعات فى ضرورات الحياة وحاجاتها . فليست المشكلة فى الاختلاط ذاته ، وإنما هى فى جو الاختلاط وإيحاءاته ..

* * *

لكن واقع الاختلاط فى المجتمع الحديث مؤسف ..

فقد فتحت مجالات اللقاء المريب ويُسِّرتْ طرقه .

فاستطاع الرجل الفاجر أن يستدرج المرأة حيث يشاء ..

وسبق إلى فهم الكثيرين أن الالتقاء بالنساء فى أى مجال – مهما كانت له قدسية – لابد أن يُستغل إلى نيل الأعراض الحقيرة وقضاء الرغبات المحّرمه ..

ومن هنا تحوّلت ساحات كثيرة إلى فرص واسعة لهذا المقصد .. فمعاهد العلم – على مالها من طهارة وتوقير – أصبحت مسرحاً لإنشاء العلاقات بحجة الزمالة والروح الجامعية .. وبيتها كانت علاقات بانية تنتهى إلى خير .. ولكن أغلبها لاهدف له ولا خير فيه ..

وأماكن العمل كذلك امتلأت بالمنافسات بين الرجل على نيل الحظوة عند الزميلات والاستئثار بقلوبهن ..

وساحات الترويح واللهو من حدائق ونواد ودور سينما ومسارح ، أصبحت مواطنَ لإنشاء العلاقات وتوكيدها ، ومهرباً تنمو فيه الصلات غير المشروعة بعيداً عن اللحظ والرقْبة .

بل إن الشوارع ووسائل الانتقال انتقلت إليها عدوى ذلك الوباء ..

فلا غرو إن نظر المؤمنون إلى هذا الاختلاط نظرة سيئة .

ولا غرو إن أصبحوا يتجهمون لكل مجال يختلط فيه الرجل بالمرأة ..

---

(١) سورة النور ٣١ .

إذ أن الشرور والأوبئة التى أسفر عنها الاختلاط الفوضوى قد أصبحت حجة تدمغ هذا اللون من الاجتماع المريب ، وتقضى على كل ظن حسن أو نظر برىء ..

وقد بينا عند عرضنا لمشكلة الشباب ، أن الذى ثبت هو أنه لا خير من الاختلاط ولا جدوى له .. إذ هو استثارة للغريزة تدفع إلى الحرص على الخطيئة بعيداً عن أعين الرقباء .

ومن جهة أخرى يعد هذا الاختلاط بابا للفوضى الخلقية فقد أدى إلى صرف الشباب عن الزواج منذ رأوا أن الالتقاء بالمرأة وخداعها سهل ميسور وعرفوا كيف يخدعون الفتيات ويلعبون بعقولهن وأحلامهن ، ثم لا يصدقون فى قول ولا يفون بعهد ..

إننا لاننكر التقاء الرجل الإنسان بالمرأة الانسانة ، فى جو واضح طاهر ، وفى صورة معقولة مأمونة تحكمها ضوابط الشرع وآدابه .

ولكن الذى ننكره ونرى فيه كوامن الشر وبواعث الفساد ، هو تيسير فرص اللقاء بين الجنسين وسط مظاهر خبيثة وإيحاءات كريهة بلا ضرورة ولا اقتضاء .

فإذا كان من الممكن أن تتعلم الفتاة فى معاهد خاصة بجنسها فما يلجئها إلى مزاحمة الفتى ومجالسته ؟!

فإن ألجأتها الضرورة إلى الدراسة فى جو مشترك فما يدفعها إلى فوضى الأزياء ، وعرض الجسد وإبراز الفتنة ؟!

وإذا اضطرت إلى العمل فما اضطرارها إلى الاحتكاك وتعمد الفتنة والإثارة ؟

إنه من الممكن أن تنال المرأة حرية الحركة ، وأن تستطيع أداء الواجب والإسهام فى التبعات ، دون أن ينجم عن ذلك من الضرر والفساد ماهو مشاهد وذلك حين تنزل إلى المجتمع متخلية عن قناع الفتنة والإثارة ، متجنبة العلاقات التى لا ضرورة لها ولا جدوى منها .

وحين تكون المرأة المسلمة كذلك ، فإنها تعود إلى مكانها فى صدر الإسلام ، وحينئذ تسجل لها صفحات المجد والفخار ، وتعرف باب التاريخ الصحيح .

* * *

ونما فى تربة الاختلاط الحبُّ الزائف .

ولم يعرف التاريخ الإنسانى تشويها لكلمة الحب وتدنيساً لها كما عرفها فى هذا العصر .. العصر ..

لقد أصبحت كلمة الحب تعنى مشاعر غليظة كدرة تمت إلى الحس ولا ترقى إلى أشواق الروح ..

ولم يعد الحب ذلك المعنى المرفوف الملىء بالمشاعر السامية والخيالات الرفيعة .

لم يعد كما كان الشاعر العربى يقول :

هل الحبُّ إلا عبرةٌ بعد عبرةٍ	وحرٌّ على الأحشاء ليس برْد
وفيضُ دموع العين ياليل كلما	بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

إن هذه الروح العفيفة وهذه المعانى الإنسانية قد ولت ، ليحل محلها الحيوانية المستبدة والمادية الجامحة .

وأصبحت كلمة الحب بابا من أبواب الخداع ، وسبيلا للنهب والاختطاف ، وفى آذاننا تطن أغنيات الحب وكلماته ، وتحت أنظارنا تقع مشاهده وتصرع ضحاياه .

والثمرة .. مزيد من آلام المجتمع وشكاياته ، ومزيد من الانتكاس والشقاء

إن فقهاء الإسلام لم يؤمنوا بكلمة العشق أصلا ..

وأهون نظراتهم إليه أنه خيالات تتعلق بها النفس .. !

والإمام الغزالى يرى أن العشق حيوانية مركبة . فلم يكف صاحبها انصرافه نحو الشهوات ، حتى وقف عند صورة حسية واحدة .

وسواء أكانت نظرات فقهاء الإسلام إلى العشق معتدلة أم قاسية، فإن الإسلام لا يرتضى علاقة بين رجل وامرأة لا تسير فى الطريق المستقيم ، طريق الزواج .

وفى بعض الآثار ذكر لثواب العاشق العفيف (١)

وكأن الإسلام بهذا لا يهتم بمناقشة حقيقة العشق وإنما يهتم بتجنب فساده وتوقى أضراره .

فليس يعنينا أن يكون الرجل صادقا فى عاطفته أو كاذبا .. ولكن الذى يعنينا أن يكون عفيفا طاهرا ، وهو وشأنه فيما يجده فى قلبه .. فليقل المحبون ماشاءوا وليصفوا الهوى والجوى .. كما وصفه الشعراء من قبل !

عزيزٌ إساً من داؤه الحدقُ النُّجلُ	عياء به مات المحبون من قبلُ
فمن شاء فلينظر إلى فمنظرى	نذير إلى من ظن أن الهوى سهل
جرى حبها مجرى دمى فى مفاصلى	فأصبح لى عن كل شغلٍ بها شغلُ

ولكن ليقفوا عند ذلك الحد ، فلا يغررون ولا يخدعون ، ولا يشيعون فى المجمع المآسى والأحداث .

كم نتمنى أن تصدق علاقات الرجال بالنساء ، وأن ترجع دائما إلى عرف محكم وقانون منظم يقف الخلق جميعا حراسا عليه .

---

(١) وذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه : « من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد » وقد رفعه بعضهم إلى الرسول صلوات الله عليه . ولا يصح ذلك .

● حين ينظر الناس إلى الغريزة النظرة الصحيحة ويسلكون فى إجابتها المسلك الحق وحين توصد منافذ العدوان وتجاوز الحدود ، فإن المرأة لابد أن تكون فى موضعها الطبيعى فى المجتمع ، إنسانة ذات رسالة وهدف ، قبل أن تكون أنثى ذات فتنة وجمال .

وحينئذ تُحَلّ مشكلات معقدة وينقطع جدل دائر ، حول قضايا المرأة وعلاقتها بالمجتمع .

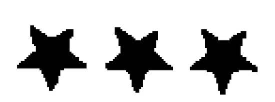
● وواجبنا هنا أن ننتهى - بعد الذى عرضناه فى هذه المشكلة - إلى قضية المرأة فى المجتمع وعرض جانبها الموضوعى ، وعزلها عما خلط بها من علاقات الغريزة ونوازعها .

وحين تتضح المسألة على هذا النحو ، وتعرف المرأة المسلمة حقيقة مايدور حولها ، وتدرك جانب العدل والمصلحة فى قضاياها ، فإنها تنصرف إلى أداء واجبها ، وتحسن حَمْل اعبائها ، وتولى وجهها عن الذين يخدعونها عن الحقيقة ويدفعونها إلى مواقف تصادم الفطرة وتجلب الشقاء .

● ونحن نعلم - عن حقيقة - أن المرأة المسلمة فى كثير من المجتمعات ضحية الذين يتكلمون باسمها وينصبون أنفسهم أوصياء عليها .. وهى بائسة شقية تلهث دائما وخلفها صيحات الدعاة الماكرين ، الذين يفاجئونها كل يوم بجديد تضطر راغمة إلى الانصياع له حتى تحوز الرضا ، ولا تنتكس إلى الرجعية والجمود !!

وهى فى استجابتها لهذه الصيحات والدعوات مرهقة مضطربة ، حائرة لاتتمالك ولا تفيق .

إن مكانة المرأة فى المجتمع ، وقضية المساواة وعمل المرأة ، ومواقف المرأة من مشكلات المجتمع ، ذلك وما يتصل به هو موضوع الحديث فى هذا الفصل الموجز لتتضح الحقيقة فتمحى الضلالات وتمحق الشبهات ، التى يروجها المفتونون ويجادل بها من لايعرفون روح الإسلام ولا يقدرون فضله فى تحقيق التوازن وهداية البشر للتى هى أقوم .



مكانة المرأة فى المجتمع *

﴿ يأيها الناسُ اتَّقوا ربّكم الذى خلقكم مِنْ نفس واحدةٍ وخلق منها زوجها . وبثَّ منهما رجالاً كثيرا ونساءً ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (١) .

* * *

كلما قرأت هده الآية وتدبرت معانيها ، تفكرت طويلا فى تاريخ المرأة على اختلاف العصور .

إن أجيالا كثيرة قد انحرفت بالمرأة ، وعطلت كفايتها ، وأخلت برسالتها وجعلتها فى الحياة من سقط المتاع .. !

وإن بعض المجتمعات فى أجيال مختلفة قد نظرت إلى المرأة نظرات شاع فيها الظلم والجهل ، وعجزت عن إدراك المكانة التى ينبغى أن تبلغها المرأة .

وينتهى بى الفكر إلى الأسى على ماحاق بالمرأة من هوان وما أصابها من القهر فى كل مجتمع شاع فيه الطغيان وسادته الجهالة .

ثم أنظر بعد ذلك إلى أوضاع النساء المسلمات فى بعض المجتمعات ومطالبهن فى العصر الحديث . عصر العدالة والنور ! .. فأرى عجبا ..

إن المرأة المفترى عليها .. قد أصبحت ظالمة مفترية ..

تفترى على الإسلام الذى أخرجها من الظلمات إلى النور .. تتظلم من أحكامه .. وتشكو شرائعه .. وتنأى عن توجيهه وهداه .. وتنحرف إلى توجيه أعدائه وتسلك سبيلهم .. وهم يخرجونها من النور إلى الظلمات ، ويذهبون بها إلى المضلات والمتاهات .

فماذا تنقم المرأة من الإسلام ؟

وماذا ترجو من أعدائه ؟

* * *

(*) لايعتبر هذا تناولا شاملا لموضوع المرأة فى الإسلام وإنما هو إشارة عابرة اقتضاها المقام . ويراجع فصل (المرأة) فى كتاب المجتمع الإسلامى للمؤلف .

(١) سورة النساء آية ١ .

ظلمها الجاحدون :

أما أن المرأة ظلمت منذ فجر التاريخ فى مختلف الأزمنة والأمكنة فذلك واقع فى التاريخ الإنسانى يؤسف له ..

ولكن المرأة ماظلمت إلا فى ظلال الجحود والكفران والإلحاد والإباحة فى كل مجتمع خوى من الإيمان وافتقر إلى العدالة . فما وئدت إلا فى ظلال الشرك والوثنية .. !

﴿ وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوَداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء مابُشر به ، أيمسكه على هونٍ أم يدُسه فى الترابِ ، ألا ساء ما يحكمون ﴾(1) .

وما انتصف لها إلا التوحيد والإيمان : **﴿ وإذا الموءودةُ سئـــلت ، بأىّ ذنبٍ قتلت ! ﴾** (2) .

وما سلبت حقها إلا حين شملت الجاهلية الروحية والعقلية والخلقية بعضَ مجتمعات الشرق والغرب مما سجله التاريخ ..

فالإلحاد والفجور هو الجو الذى اعتدى فيه على حقوق المرأة ، وهيض جناحها وأحاطت بها الظلمات والأكدار .

والإيمان واليقين والاستقامة هو الحو الذى صلح فيه أمر المرأة وأصبح لها بجانب الرحل مكان النصفة والعدل والإحسان .

● والآية التى صدرنا بها هذا الفصل تصور المحتمعات البشرية ، هذا التصوير العادل الواضح المستقيم .. نفس واحدة ، هى نفس آدم ، خلق الله من طبيعتها وحصائصها نفسا أخرى هى زوجه حواء ، ومن هذا الأصل تفرعت الأجيال واختلفت الشعوب .. رجالا ونساء يؤدى كل دوره ويقوم بواجبه الذى رشحته له فطرته واقتضته خصائصه .. بلا تظالم ولا تناكر ولا حجود ..

● للرجل واجب يحسن القيام به وللمرأة مجال تصلح له . وماعدا ذلك فهناك أمور عامة يشترك فيها الجنسان أصالة ، ويتقدم فيها أصحاب الكفاءة والسبق منهما .

وهذا مجمل نظرة الإسلام لوضع المرأة فى المجتمع ..

فللمرأة البيت والأمومة ، وللرجل الكدح والصراع ..

﴿ والوالداتُ يرضعنَ أولادهنَّ حولين كاملين لمن أرادَ أن يتمَّ الرَّضاعة ، وعلى المولود له رِزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف ﴾(3) .

وفيما وراء ذلك .. فالدين تكليف للرجال والنساء على قدم المساواة :

---

(1) سورة النحل ٥٨ ، ٥٩ .

(2) سورة التكوير ٨ ، ٩ .

(3) سورة البقرة م ٢٣ .

﴿ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتاتِ ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابراتِ ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقاتِ ، والصائمين والصائماتِ ، والحافظين فروجهم والحافظاتِ ، والذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ ، أعدَّ اللهُ لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ (١) .

وقد نزلت هذه الآية ، حين سألت إحدى النساء رسول الله ﷺ : مابال الرجال يذكرون فى القرآن ولا نذكر !

● والعمل الصالح والخلق النبيل والجهاد فى سبيل العقيدة ، ميدان مفتوح للرجال والنساء جميعا :

﴿ فاستجابَ لهم ربهمْ أنى لاأضيعُ عملَ عامل منكم من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعضٍ ، فالذين هاجرُوا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلِي وقاتلوا وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ ثواباً من عند الله واللهُ عنده حسنُ الثواب ﴾ (٢) .

● والمسئولية الاجتماعية فى المجتمع المسلم ملقاة على عاتق الرجال والنساء ، يلزم الجميع رعايتها وحسن القيام بها :

﴿ والمؤمنون والمؤمناتُ بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ويقيمونَ الصلاة . ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم اللهُ ، إن الله عزيز حكيم ﴾ (٣) .

وللمرأة أهليتها والتزاماتها المادية كما للرجل :

﴿ للرجالِ نصيبٌ مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ (٤) .

وقد شاركتِ المرأة المسلمة الرجل فى تحمل أعباء المجتمع المسلم والقيام بواجباته .. فقد هاجرت فى سبيل الله كما هاجر .. وجاهدت وفق قدرتها كما جاهد .. وفى التعليم .. وكان لها جهادها فى حل المشكلات والأزمات ..

● فليس الإسلام هو الذى يرى إقصاء المرأة عن الحياة ، أو عزلها فى أضيق نطاق ، أو سلبها خصائص الإنسانية والأهلية لتحمل الأعباء ..

بل « **النساء شقائق الرجال** » (٥) كما يقول الرسول ﷺ . وليس قصر واجب

---

(١) سورة الأحزاب ٣٥ .
(٢) سورة آل عمران ١٩٥ .
(٣) سورة التوبة ٧١ .
(٤) سورة النساء ٣٢ .
(٥) رواه أبو داود والترمذى .

المرأة على البيت والأمومة ظلما لها ، أو تعطيلا لمواهبها . فالحياة تخصص ولابد من تقسيم أعباء الحياة بين الرجال والنساء بما يحسنه كل منهما .

● وقد خلقت المرأة لتقوم بدور خطير فى المجتمع ، وهو أن تكون شريكة الرجل فى حفظ أمانة الحياة ، ورعاية الأجيال ، ومجالها الحق هو الأسرة ، حيث تمثل قلبها النابض وروحها الموجهة ..

إنها هناك فى آقدس غاية وأكرم عمل ، حيث تصنع الطفولة وتتعهد الرجولة وتشيع فى بيتها الحب والحنان ..

إن منطق الفطرة الصادق هو الذى يحدد واجب كل من المرأة والرجل على نحو مايرى الإسلام .

● وها هو الغرب المادى بعد أن مضى فى الشوط إلى نهايته ، وأخرج المرأة من البيت لتعمل فى المكاتب والمصانع والأسواق ، عاد عقلاؤه يألمون لما أصاب الأسرة والمجتمع من وهن واضطراب حين طال غياب المرأة عن البيت وضعف اهتمامها به ومما نطقت به ألسنتهم ماقرره مؤتمر الجريمة الذى عقد فى لندن هذا العام (١) لبحث أسباب انتشار الجرائم جاء فى بعض قرارته :

« إنه إذا كان من المتفق عليه أن الأندية تسهم فى رفع مستوى الأولاد ، وأن شغل أوقات الفراغ بطريقة سليمة ، من شأنه أن يعمل على تهذيب الشباب ، وأن المدرسة كذلك ودور الحضانة تقوم بدور كبير فى هذه الناحية إلا أن الأم هى ركن الأسرة الإيجابى .. وهى التى يتوقف عليها سعادة المجتمع أو شقاؤه .

فإذا تغيبت المرأة عن رعاية الجيل الذى يكون هذا المجتمع ، فإن السعادة لابد أن تفارق هذا المجتمع » ..

وقال المؤتمر : إن المال الذى تجنيه المرأة من عملها لتنفقه على أولادها لا يكفى من الناحية لتربية الأولاد ، فضلا عن الفراغ الكبير الذى يتركه خلو المنزل من الأم ، وهى ركن الأسرة الإيجابى .

وقد أجاز هذا المؤتمر للمرأة أن تزاول العمل الذى لا يستطيع أن يقوم به الرجل ، قياماً بحق المجتمع ، ولا يكون هدفها منه هو الحصول على المال كأن تقوم بدور الممرضة أو طبيبة أمراض النساء .

* * *

---

(١) كان ذلك فى سنة ١٩٦٠م .

● لقد كانت الدعوة إلى إحراج المرأة من البيت بلا هدف إلا مجرد الخروج المتمرد على الفطرة الكاره للحقيقة ، نكبة أصابت المرأة والأسرة فى الصميم .. كما أصابت المجتمع كله .

وقد أصبحت المرأة فى كثير من البيئات المادية المعاصرة تضطر إلى إهدار كرامتها وامتهان عواطفها .

وإن حظ المرأة من الكسب ، فى هذه البيئات رهن بمدى نجاحها فى إبراز جمالها وعرض فتنتها .. بالأصباغ .. والألوان .. والأزياء .

وهذه ضعة وليدة هذا العصر .. تغض من قدر المرأة وتفرض عليها أن تستجلب إعجاب الفجرة وتتملق أهواءهم ..

« إن المرأة إنسان كريم ، وأسمى مافيها إنسانيتها الرفيعة وقد قضت سنة الله أن تجعل كرامتها منوطة برعاية أماناتها الخاصة .. وأن تجعل سعادتها منوطة بأداء وظائف تلك الأمانات : أما ، وزوجة ، وربة بيت .. وبهذا تهتف غريزة المرأة ، ويشهد وجدانها الأزلى العميق .. فإذا بنينا مكانها فى الحياة على هذا الأساس ، وقررنا لها حقوقها لى هذا النهج ، وفرت كرامتها ، وسبغت سعادتها وهناءتها .

فإن كانت أما ففى طاعتها رضوان الله ، وتحت أقدامها الجنة .. وإن كانت زوجة صالحة فهى أفضل ذخر يستفيده المرء من دنياه بعد تقوى الله .

فماذا وفرت لها حضارة الرقيق وأسواق النخاسة من كل ذلك ؟

إن عمل المرأة فى البيت تسوس زوجها ، وتربى طفلها ، وتدبر معاش أسرتها — سعادة ما بعدها سعادة وهى بعد ليس بالأمر الذى يقل منزلة عن وقوفها فى محل تجارى تبيع الملابس والعطور ، أو تلف المبيعات فى الورق ، أو تقبض أثمانها أمام الخزانة !!

إن المرأة فى البيت تصنع للطفل رجولته ، وخلقه العملى الناجح ، وتنشئه على ماتطلب الحياة الكريمة من فضائل...

فمن يمنحه ذلك إذا تركته للخدم أو لسواهم ومضت إلى عملها فى الخارج ؟ .

وهى فى البيت المصدر الروحى لإشعاع الرحمة والمودة على زوجها — كما ورد فى القرآن الكريم — وهى بهذه المثابة المهاد الذى يلقى فيه الحنان والدعة والعطف والسكينة . فمن له إذا خرجت وعادت آخر النهار — مثله — مهدودة القوى ضيقة النفس بما لقيت من عناء يومها ؟

ليس إشعاع الرحمة والمودة فى البيت بالأمر الهين الذى يتصوره المحرومون المحجوبون عن حقائق الأمور ، فإن الدنيا كلها بما فيها من ذهب وثروة ومتاع .. لا تساوى فى ميزان الحق مثقال ذرة ، إذا هى خلت من المودة والرحمة ..

ومن سرها فى البيت أنها جهاز روحى عجيب ، يلقى فى روع الرجل أسرار القوة ومعانى الثقة بالنفس ..

وإن كلمة واحدة منها – وهو يشكو جور الزمان أو منافسة الأقران ، أو مكائد الرجال – كفيلة أن تمده بطاقات عجيبة من الهمة والأمل والثقة بالنفس ، فإذا هو كأنه خلق جديد وبناء غير الذى كان يوشك أن ينهار .. إن المرأة تستطيع أن تخلق الرجل كل يوم مرة أو مرات ! ..

وهى بقيامها على المهد ، ورعاية طفولة ولدها ، إنما تصنع مستقبل وطنها ، ولسنا ندرى عملا لمرأة فى الحياة يفوق فى شرفه ، وسمو غايته هذا العمل ... » (١)

إن الوضع الطبيعى للمرأة فى المجتمع هو مارآه لها الإسلام ..

أن تحمل فى الحياة نصف العبء وتسد فى المجتمع الثغرات ، وزتغنى فيه مالا يغنى الرجل .

لأن تصادم نوازع الفطرة ، وتترك مكانها الخطير فى الأسرة خالياً ، فتثير فى المجتمع الخلل والاضطراب ..

وإن الإسلام لا يحظر عليها العمل ، حين تضطر إليه لكفاية حاجتها أو لسد خلّتها أو الإنفاق على أسرتها حين لا يكون لها عائل . كما يطالبها بالعمل حين يحتاج إليها المجتمع ويتطلب منها العون ..

ولكنه يكره لها أن تخل برسالتها الأولى ، رسالة الأسرة والطفل ، وتتكلف مالا حاجة لها به ، ثم لاترعى ضوابط الإسلام فى الخلق والسلوك !

---

(١) المرأة بين البيت والمجتمع للاستاذ البهى الخولى آ ١٣٣ – ١٣٤ .

قضيـــة المســاواة

مما شغلت به المرأة المسلمة المعاصرة فى كثير من المجتمعات ، تلك القضية العجيبة التى دار حولها الحديث طويلا واختلفت الآراء : قضية المساواة ..

لقد زعمت أنها مهضومة الحق ، مسلوبة الإرادة ، مضيعة الحقوق .. والذى ظلمها هو الرجل ، أو الدين الذى أعان عليها الرجل ، حين أعطاه مالم يعطها ولم يساو بينهما فى كل الحقوق ..

فلماذا تكون القوامة للرجل دون المرأة .. ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾ ؟!

ولماذا يملك الرجل حق الطلاق ولا تملكه المرأة ؟!

ولماذا ينال الرجل من الميراث ضعف ماتناله المرأة .. ؟

ولماذا تعتبر شهادة المرأتين فى مقام شهادة رجل واحد ؟

﴿ **فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان** ﴾ ؟!

ثم لمـــاذا !!

* * *

تلك حلاصة قضية المساواة التى عقدت من أجلها المؤتمرات وصدرت الصحف وتكونت الجمعيات ، وارتفعت الصيحات كلما خلا الجو وانفسح المجال ..

فهل هى قضية تستهدف العدل وتتحرى الحق ، أم هى شغب يخفى وراءه باطلا ويستر عبثاً ، ويسعى إلى ضلال .. ؟

من المشاهد أن زعيمات هذه الحركة من سيدات المجتمع الراقى من اللاتى لم يكتوين بألم ولم يشعرن بحرمان .. فاتجهن إلى ملء الفراغ لهذه القضايا التى تجلب لهن الشهرة .

ولكن إحقاقا للحق وإنصافا لآراء الزعيمات المناضلات ، نأخد الأمر جدا ونناقشه من جانب الموضوع ، لنرى جانب الحق فى قضية المساواة ونكشف ماوراءها للمؤمنات من نساء الإسلام ..

* * *

أول مطالب المساواة : .

لماذا يجعل الإسلام للرجل القوامة فى الأسرة ، حين يقول القرآن : ﴿ **الرجال قوّامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾ [١] .

والجواب : أن الإسلام لم يفرض جديدا ولم يغير مألوفا .

ففطرة المرأة منذ فجر التاريخ لاتشعر بالأمن إلا بجانب الرجل ، وتكل إليه دائما حمايتها وحماية الأولاد وتترك له الكدح والسعى والنضال وتحمل الأعباء .

وحتى اليوم مازالت المرأة تريد من الرجل ذلك ، لأن هذه طبائع الأشياء .

فقد خلق الرجل قوى البدن قوى العضلات ، متحملا للمكاره مقتحما للصعاب وخلقت المرأة ضعيفة البدن رقيقة الشعور قليلة التحمل والعناء .

فأى ذنب جناه الإسلام حين اعترف بالواقع . وصوّر الحقيقة وجعل الرجال قوامين على النساء ؟؟

هل تريد المرأة المعاصرة أن تصبح هى القوَّامة ؟!

إن القوامة معناها الكفاءة فى تحمل والقدرة على النهوض بالتبعة ، والقيام بالواجب ، فهى تكليف لاتشريف ، تكليف يتحمله القادر وليست استبدادا ولا هوى ..

وقد كان المهرجون يزعمون أن قوامة الرجل على المرأة إنما كانت حين كان الرجل يتحكم فى الإنتاج ويستبد بالكسب ، أما الآن فقد أصبحت المرأة تعمل وتكسب كالرجل ، فلا معنى لقوامته عليها ..

ولكن واقع العالم الغربى كذّب هذا الظن ، فقد اكتسبت المرأة هناك واستقلت ، ومع ذلك لا تزال تطمئن لقيادة الرجل وقوامته ، وتعمل على أن تعيش فى حمى هذه القوامة ولا تشعر بالطمأنينة والأمن إلا فى ظلالها ..

فقد صدق الإسلام وكذب المفترون ..

* * *

ثانيا الشبهات .

لماذا يملك الرجل حق الطلاق دون المرأة ؟

والجواب : أن إنهاء العلاقة الزوجية وهدم البيت ، يجب أن يكون فى يد من يستطيع التفكير المتئد ووزن الأمور بميزان سليم ، لامن تغلب عليه العاطفة ويغفل عن العواقب ولا يتحمل التبعات ..

---

(١) سورة النساء ٣٤ .

والمرأة متقلبة لاتستقر عاطفتها على حال ، وأحاسيسها سريعة التأثر ، وهي قد تقبل اليوم مارفضته بالأمس ، وترفض غدا ماقبلته اليوم . فأى نكبة تحل بالمجتمع حين يجعل زمام الأسرة فى الأيدى الناعمة ، التى لاتحسن التفكير وإدراك الحقائق ، بل تتأثر بالمظاهر والأشكال ..

على أن الإسلام قد أعطى المرأة سعة من الأمر ، فأباح لها أن تشترط فى عقد الزواج أن تكون عصمتها بيدها ، فتستطيع إنهاء الزواج حين يمسها الضرر ولا تتحمل الأذى . كما أباح لها أن تفتدى نفسها حين تريد ، فترد على زوجها صداقه وتقطع مابينها وبينه من رباط .

* * *

أما لماذا فرض الإسلام للرجل من الميراث ضعف مافرض للمرأة فى أكثر الأحوال ..

فلذلك أسبابه الاجتماعية العادلة فإن الرجل يتحمل من التبعات المالية مالا تتحمله المرأة ، إذ هو مطالب بالإنفاق على أهله متحمل لأعبائهم ، بينما لاتطالب المرأة بذلك ..

وليس ذلك لسوء تقدير الإسلام للمرأة ، أو نظرته إليها على أنها نصف الرجل بل تلك عدالة فى القسمة ، وإعانة للرجال على مواجهة تبعات الحياة . هذا إلى أن نفقة المرأة واجبة على الرجل أبا أو زوجة أو أخا ، وليس عليها أن تنفق على أحد ..

وكذلك الشأن فى اعتبار شهادة المرأتين بشهادة رجل ، فمرجع ذلك إلى ما بينته الآية فى قوله سبحانه :

﴿ فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، أن تضلَّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾(١) .

وليس مرد ذلك إلى أن المرأة لاتستطيع وحدها أن تتحمل أعباء الشهادة فذلك أمر يسير ، يمكن للمرأة كما يمكن للرجل سواء بسواء ، ولكن قد تأخذ المرأة رقة القلب ومشاعر الرحمة ، فتتصرف فى شهادتها وتخفى الحقيقة ، فإذا اجتمعت معها امرأة أخرى اتضحت الحقيقة وأمن الضلال .

وهذا لايعنى الثقة بالرجال دون النساء ، وإنما هذا اعتبار لما ركب فى الرجل من الصلابة والشجاعة والتحمل والقدرة على الخروج من نطاق العاطفة حتى لقد كان الرجل المسلم يقاتل أباه أو أخاه أو ابنه المشركين .. فهل تستطيع المرأة ذلك وهل يمكنها أن تتحرر من سلطان العاطفة ، وهي التى ترق أمام الأحزان وتهلع أمام الشدائد . وليس ذلك عيبا فيها وإنما هى فطرتها الأصيلة ..

---

(١) سورة البقرة ٢٨٢ .

فلابد من احترام الفطرة والنزول على حكمها من عناء الجدال بالباطل والمناقشة بلا علم ولا هدى ولاكتاب منير .

* * *

بقيت مسألة الحقوق السياسية ..

وقد كنا – لفرط مانراه من إلحاح النساء بهذه الحقوق – نعتقد أنها ضرورة لهن ، وأن حياتهن لاتستقيم إلا بها ، أو أن لديهن من المواهب والكفايات مايردْن به خدمة الأمة وإسعاد المجتمع ..

حتى حصلت النساء فى كثير من المجتمعات العربية على حقوقهن السياسية !

فأبيح لهن الاشتراك فى الانتخابات ، لمجالس الشورى والترشيح لها ..

فماذا فعلن بعد هذا الظفر والانتصار ؟

لقد تكشفت الضجة عن لاشيء ، وظهر أن الدعوة الملحة كانتْ من أجل الظهور ، لامن أجل الكفاح ولا فى سبيل عقيدة أو مبدأ ..

فماذا كان وراء قضية المساواة إذن ؟

لقد كان من ورائها تيارات خبيثة ، تستهدف قلب أوضاع المرأة المسلمة ، وتحويلها إلى مجرد مسخ شائه ، تهرف بما لا تعرف ، وتنطق بما لا تعى ، وتندفع دون ترو ولا فهم ، ودون علم ولا برهان !

من أجل ذلك كنا نعجب من سلوك زعيمات قضية المساواة فى بعض المجتمعات الإسلامية .. !

لقد كن يتبنين قضية الأزياء والاختلاط الفوضوى ، كما يتبنين قضية المساواة فأى علاقة بين حقوق المرأة وبين الزى الفاضح والسلوك العابث ..؟!

هل هذا أيضا من حقوقها التى اغتصبها الرجل الظالم ، أو الدين الذى شجع الرجل على ذلك .. !!

لقد كانت تيارات العبث وراء قضية المساواة ومطالب المرأة ..

ومن المؤسف أن نقرر أن كثيرا من مظاهر وأنشطة الحركة النسائية مجرد تقليد ، وأسماء بلا حقائق ولا غايات جادة .

وإلا لو كانت تلك الحركة تمثل نساء العروبة أو نساء الإسلام ، لما اقتصرت حتى الآن رغم السنين الطويلة التى عاشتها ، على هذا النطاق الضيق الذى يمثل « سيدات المجتمع» أو نساء «الطبقة الراقية» التى تقبل على هذه الحركة كلون من شغل الفراغ ،

أو استكمالا للمظاهر .

إن ملايين النساء المسلمات فى القرى يعشن كادحات صابرات ، يقمن بواجب عظيم .. يعملن فى صمت ، ويكافحن فى بطولة ، بعيدا عن الدعايات والأضواء .. ولا يملكن الفرص التى تملكها الزعيمات المناضلات المطالبات بالعدل والمساواة .. !!



تعليم المرأة وعَمَلهُا

المرأة – كما يراها الإسلام – إنسان له خصائصه النفسية ومشاعره الطبيعية . ومن هنا فإن لها رسالتها التى تتفق مع تلك الخصائص ..

فالأمومة ورعاية الأطفال وإدارة البيت ، وتهيئة الحياة المطمئنة للزوج ، وصنع الطفولة السعيدة الموجهة ، كل هذه بعض وظائف المرأة الحقيقية ، التى جهزت لها ووهبت خصائصها ..

ويتفرغ على ذلك من وجهة نظر الإسلام شيئان :

أولا : أن يراعى فى تنشئة الفتاة إعدادها للقيام بهذه الرسالة ، لا الانحراف عنها ..

ثانياً : لابد من تهيئة السبيل للمرأة للقيام بدورها الطبيعى ، لاجرّها إلى ساحات تنسى فيها طبيعتها وتتجاهل فطرتها ، مما ينتج عنه شقاؤها وشقاء المجتمع ..

* * *

وعلى هذا الأساس ينظر الإسلام نظرة متميزة إلى تعليم المرأة ، وإلى اشتغالها بالأعمال:

أما التعليم .. فبالاضافة إلى القدْر الضرورى المشترك بين كل رجل وامرأة، وهو معرفة حقائق الدين وأهدافه ، فالأجدر بالمرأة الإقبال على تعلم مايعينها على أعباء الأمومة وواجبات الأسرة ، من تدبير المنزل ورعاية الطفل وما يتصل بذلك من شئون صحية واقتصادية واجتماعية وثقافية .

ثم لا شيء يحول بين الفتاة وارتياد ما تشاء من ميادين العلوم والآداب والثقافات . فقد كانت عائشة رضى الله عنها زوج الرسول ﷺ ، تفوق بعض الرجال فى رواية الشعر ومعرفة الأنساب .

على أن لايكون ذلك صارفاً لها عن واجبها الأصيل ، ومهمتها التى تنادى بهاالفطرة ..

فما حاجة الفتاة إلى أن يفرض عليها دراسة الكثير من العلوم والفنون وغير ذلك من ألوان العلم التجريبى ، بينما لا تحسن من أعمال البيت وفنوف الأسرة شيئاً ؟!

إن هذا مناف لفطرتها ، بعيد عن حاجتها ، لايرضى نزعاتها ولا يستجيب لعاطفتها ..

منطق الفطرة يقضى بأن سبيل كل فتاة ، مثقفة أو غير مثقفة ، هو البيت والزواج

فلم لاتجهز الفتاة لمهمتها الطبيعية . ولا تعد لواجبها الفطرى ؟ ..

فإذا وجد من النساء من ترغب فى دراسة العلوم التجريبية والتخصص فيها ، فهى وشأنها لا تصد عن ذلك.. ولكن لابد من تهيئة الجو الصالح النقى من الفوضى البعيدة عن العبث ، الذى يتوافر فيه الأقبال على العلم والانصراف عما سواه .

* * *

وتبقى مسألة العمل ..

هل تعمل المرأة بعد أن تتعلم ؟ ..

وقد انتهينا – فيما سبق – إلى أن فطرة الحياة تقضى بانصراف المرأة إلى الأسرة والبيت ، فذلك هو المجال الطبيعى الذى جهزت له ومنحت وسائله .

فالأقرب إلى الفطرة والأولى بالاعتبار ، أنه ليس للمرأة أن تخرج إلى ساحات العمل المرهقة، وتتخلى عن مهمتها التى لا يحسنها غيرها. فذلك هروب من الميدان ونكوص عن الواجب ، فضلا عن منافاته للفطرة ومجافاته لطبائع الأشياء ..

ولكن حين تحتاج المرأة حاجة حقيقية إلى العمل ، إذا لم تجد عائلا قادراً ، أبا ، أو زوجا ، أو ابنا ، أو حين يحتاج المجتمع إلى جهودها فى الميادين التى لايصلح فيها سواها .. فليس فى العمل كراهة ولا بأس . بل هو محتم مطلوب وقد كانت النساء فى صدر الإسلام يتاجرن ويزارعن ، ويمارسن الأعمال الملائمة لهن كالغزل والنسج ، وها هى المرأة فى الريف تعمل فى البيت وفى الحقل دون غضاضة ولا حَرج .

والحق أن المشكلة ليست فى العمل ذاته – سواء كان عن حاجة أو غير حاجة – بقدر ماهى فى ملابسات العمل وأوضاعه .

فالزى الفاضح ، والاختلاط الفضولى ، والصداقات المريبة ، وغير ذلك من علاقات العمل وصلاته ، كل ذلك يكون مشكلة معقدة ، تحيط اشتغال المرأة بجو مضطرب يفتقر إلى إصلاح . فإذا احتاجت المرأة إلى أن تعمل وتكتسب فسدت حاجتها واكتفت ، فما حاجتها إلى أن تثير الفتنة وتستلفت الأنظار ؟!

وكذلك ماحاجتها إلى الصلات العابثة والصدقات المريبة ؟!

إن من قواعد الإسلام أن « الضرورة تقدر بقدرها » ومعنى ذلك أنه لابد من فصل القدر الضرورى من العمل عما لاضرورة فيه .

وأيضاً لابد من فصل ضرورات العمل عما لاحاجة إليه .

ولو أن كثيراً من الفتيات المثقفات المشتغلات بالأعمال بلا ضرورة ولااحتياج سئلن لماذا تعملن ؟

لما وجدن جوابا إلا أنهن يسايرن تقاليد العصر .

إن اشتغال المرأة وغيابها عن الأسرة بلا حاجة اقتصادية أو ضرورة ماسة ، جناية على الأسرة وجناية على المرأة ذاتها .

فكثيراً ماتتجه الفتاة نحو العمل وتتفرغ له ، ثم ترجع بعد فوات الأوان تبتغى الزوج والبيت ، وينتابها القلق المدمر والشقاء اللافح .

وتلك ظاهرة اجتماعية واضحة .

إن القلق النفسى يعصف بالفتيات العاملات يخشين أن تضيع الفرصة ويظلم المستقبل ..

إن الفتاة العاملة فى الغرب تنطلق فى علاقاتها كما تشاء بلا حساب ، بحكم انحلال المجتمع وفوضاه . أما الفتاة العاملة فى الشرق فهى مقلدة تريد أن تجمع بين التقليد والاحتفاظ بدورها القديم بحكم مابقى فى المجتمع من ضوابط وحدود . فهى أشقى من فتاة الغرب .. ولا ضرورة تحملها على هذا الشقاء .

فالواقع أن أوضاع المرأة فى الغرب تختلف كثيراً عن أوضاع المرأة العربية ..

ففى الشرق يحمل الرجال أعباء النساء ببطولة وتضحية ، حتى أعباء العاملات منهن . فقد تعمل المرأة وتكتسب ، ومع ذلك تبقى فى كفالة الأب أو الأخ أو الزوج ، وتحتفظ بكسبها لزينتها وترفها . أما نساء الغرب فهن مضطرات فى الغالب للعمل من أجل القوت ، وهن يمارسن أعمالا شاقة مرهقة ، فالمرأة هناك قد تعمل سائقة للقطارات أو حمالة فى المحطات ! أو غير ذلك من الأعمال المضنية ، وأمل الفتاة هناك أن تجد زوجاً يقيها مرارة الكدح ويكفيها أعباء الحياة ! ..

فالتقليد المزوّر والمحاكاة الكاذبة هى التى تنشر بيننا الأفكار العجيبة التى تحتم ضرورة العمل لكل فتاة ، ولو ترتب على ذلك شقاء المرأة ذاتها ، وشقاء المجتمع كله ..

* * *

على أن هناك أعمالا مزرية لا ينبغى أن تتورط فيها المرأة مهما بلغت بها الفاقة والاحتياج .

وهذه الأعمال أبواب فاجرة فتحها الفساق.والخاطئون لإرضاء شهواتهم مستغلين تغير الأوضاع واختلال القيم ..

فلا ينبغى أن تعمل الفتاة « سكرتيرة خاصة » لرجل مهما كانت مكانته !

وأول مايشترطه فيها كما نرى أن تكون جميلة ذات مظهر حسن .

فإن ذلك لون فوضوى من ألوان الرقيق لا ينبغى لامرأة تعرف معنى الإنسانية أن تقبله

مهما كان الأجر الذى تناله ..

كما لايجوز أن تعمل الفتاة« مضيفة » فى ملهى أو مرقص !!

وغير ذلك من الأسماء المزورة التى تخفى وراءها كثيرا من الجرائم البشعة .

ولا أن تهدر كرامتها وإنسانيتها فتعمل راقصة أو تنخرط فى سلك الفن الجنسى السافر !

إن المرأة فى هذا كله تمسخ إنسانيتها وتكتسب عن طريق دنىء .. لو كان الدافع لها مجرد الكسب والتقوت فلن تضيق الحياة عن عمل شريف يضمن للمرأة القوت ولا يسلبها العفاف والحياء ..

ولكن المستغلين الهدامين يلوحون للفتاة بهذه الأعمال ، لتتخلى عن كل شىء وتتنازل عن كل قيمة ..

ولابد من حماية المرأة المسلمة من هذا الاستغلال البشع ، الملوث بتجارة الجسد الهادف إلى الهدم والإفساد .

أولى بالمرأة المسلمة أن تحافظ على إنسانيتها ، وتدافع عن قيمتها ، ولا تتدنى إلى مجرد الأنوثة ، والكسب من هذا الطريق ، وأن يعينها المجتمع على ذلك بما يضعه من ضوابط وحدود .



المرأةُ ومُشكِلَاتُ المجتَمَــع

لابد للمرأة حين تحس بإنسانيتها وتنصرف عن التفاهة والتقليد ، أن تشارك فى حمل مسئوليات المجتمع الذى تعيش فيه وفق خصائصها الفطرية ، وألا تعيش على هامشه ، للزينة والمتاع ..

● إن لنا مشكلات اجتماعية بارزة تستطيع النساء المثقفات الواعيات ، الإسهام فى حلها ، وتخفيف ويلاتها على المجتمع ..

فمن المؤسف أن لايتضح دور المرأة فى خدمة المجتمع حتى الآن سوى بعض الجهود التى يغلب عليها التقليد أو حب الظهور .

هناك مشكلة المرض بشتى جوانبها وآثارها ..

ومأساة الطفولة المشردة التى تعد وصمة للمجتمع كله ..

ومشكلة الفقر والحاجة والعجز ..

والأمية الفاشية بين الرجال والنساء ..

ولهذه المشكلات الكبرى فروع وانعكاسات وتفصيلات تعرف عند بحثها واكتناه حقائقها .

فماذا فعلت المرأة المسلمة المثقفة المطالبة بالحرية والمساواة ؟!

● إن المرأة الريفية مازالت متخلفة فى وسائل المحافظة على طفلها ورعايته ، وما زالت جاهلة بالمهارات التى جدّت على حياة الأسرة فى هذا العصر .. فهل تنزل المثقفات إلى القرى – فى جدٍّ واهتمام – ليؤدين واجبهن نحو الأم الريفية الكادحة . ؟

إن المرأة الحانية تستطيع أن تشيع فى المجتمع الأمن والاطمئنان تتفقد مواضع الحاجة والضعف ، وتعمل من أجل العانين والبائسين ..

وهى لن تستطيع ذلك إلا إذا تملكتها فكرة أقوى من العبث والتقليد ، وشملها الإخلاص الذى لا ينبع إلا من عقيدة هادفة نحو العمل والإصلاح .

* * *

إن المرأة المسلمة قد أسهمت فى الأجيال الواعية ، بنصيب وافر فى ترقية المجتمع وتخفيف آلامه .

فقد أسهمت بنصيب فى الجهاد فى سبيل الله وهو ذروة العمل الصالح ، فى الإغاثة ، والتمريض ، والتحميس .

وفى تاريخ صدر الإسلام من ذلك الكثير – وهذا بعض مارواه البخارى :

عن ثعلبة بن أبى مالك أن عمر رضى الله عنه قسم مروطا على نساء من نساء المدينة ، فبقى مرط جيد ، فقال له بعض من عنده : ياأمير المؤمنين : أعط هذا بنت رسول الله ﷺ التى عندك – يريدون أم كلثوم بنت على – فقال عمر : أم سليط أحق به .

وأم سليط من نساء الانصار ممن بايع رسول الله ﷺ .

قال عمر : كانت تزفر – أى تحمل – لنا القِرَب يوم أحد .

وروى البخارى عن أنس قال : لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ ، ولقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليط وإنهما لمشمرتان ، أرى خلاخيل سُوقهما ، تسرعان بالقِرَب على متونهما ، ثم تفرغان الماء فى أفواه القوم ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانه فى أفواه القوم .

وأسهمت بنصيب فى الخدمة الاجتماعية المخلصة بالوسائل المقدورة .

وشاركت فى الحركة العلمية بما قدرت عليه ونبغت فيه . وقد كان من النساء من يعوّل عليهن فى الأخذ والتلقى فى علوم الدين واللغة .

وقد نجد من النساء المسلمات من رقين إلى مراتب لم يرق إليها كثير من الرجال !

ولنترك عصر الرسول وصحابته ، فتاريخ النساء فيه مشهور ومذكور .. ولكننا سنضرب أمثلة ببعض نساء القرون الوسطى من غير المشهورات .. ففى حرف واحد من حروف معجم « الأعلام » نجد هذه الأمثلة :

● زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الجرجانى : فقيهة اشتغلت بالحديث وأخذت عن جماعة من كبار العلماء رواية وإجازة . عاشت بنيسابور بين سنتى ٥٢٤ هـ و ٦١٥ هـ وانقطع بموتها إسناد عال فى الحديث !!

● وزينب بنت مكى بن على الحرانى ، فقيهة ازدحم عليها الطلبة يأخذون عنها علوم الدين ، فاشتهرت .. وهى من الصالحات ، توفيت بدمشق سنة ٦٨٨ هـ .

● وزينب بنت محمد بن محمد بن أحمد الغزى : شاعرة فاضلة من أهل العلم والصلاح ، قرأت على أبيها وأخيها ، وقالت الشعر الحسن ، توفيت سنة ٩٨٠ هـ .

وزينب الرفاعية بنت الإمام أحمد الرفاعى ، فاضلة صالحة سلكت طريق أبيها فى التصوف ! وحفظت القرآن وسمعت الحديث ، وتفقهت ، وأخذ عنها أولادها ! توفيت فى أم عبيدة سنة ٦٣٠ هـ [١] .

---

(١) يراجع كتاب الأعلام للزركلى . وغيره .

فماذا دهى المرأة المسلمة فى هذا الزمان ، حتى أصبحت بعيدة عن دينها زاهدة فى تراثه ..

إن الدعوات الإباحية والتيارات الخبيثة تريد لها أن تعيش فى أفق حقير .. فتنة الجسد وإثارة الغريزة . وليس هذا مانرضاه للنساء المسلمات اللاتى امتلأ تاريخهن الزاهر بصور فريدة من النبل والتضحية والفداء .

إن المرأة فى المجتمع الإسلامى المعاصر لم تكتف بوقوفها عاجزة أمام مشكلات المجتمع ومعضلاته بل أضافت إلى ذلك أن صارت هى مشكلة أخرى إلى جوار ماينوء به ذلك المجتمع من رزايا ومعضلات ..

● وما يشك أحد فى أن انحراف المرأة المسلمة عن رسالتها فى البيت والمجتمع ، وتخليها عن واجبها الأصيل وتقحُّمها مالا شأن لها به ، أصبح مشكلة خطيرة تفرّع عنها كثير من المتاعب ونشأ عنها العديد من المضاعفات . لقد سبّب هذا شقاء الرجل ، الذى ماعاد يجد فى بيته السعادة والسكينة ، والذى ماعاد البيت فى نظره مراحا ومستجما ، بل فندقا للمبيت لايحفل بما كان يحفل به فى سالف الزمان . وسبب هذا شقاء الطفولة التى ماعادت تجد الأمومة الحانية المتفرغة التى تنقطع فى إخلاص وتقديس لتعهد البراعم الصغيرة حتى تتفتح عن أزهار ناضرة ..

وسبب هذا شقاء المرأة نفسها وتعاستها . إنها شقية متعْبة يائسة بائسة ، وهى تجد نفسها فى طريق موحش لاأمل فيه ولا رجاء .. إنها فى نظر نفسها ونظر المجتمع أنثى فحسب ، عليها أن تبرهن على هذه الأنوثة ، وتشحذ أسلحتها ، وتجدد اساليبها ، وتسلك شتى السبل حتى لاتتخلف ولا تنقطع ! . فلن يغنى عنها علم ولا مرتبة ولا مال إن هى لم تصبح فاتنة كما يريد لها التقليد ويرضى .. !

وبهذا أصبحت المرأة – كما يقولون – لاتنسى فتنتها فى كل مجال ونشأ عن انفجار هذا الداء فى أنحاء المجتمع ، أن شقى المجتمع بهذه الفتنة ، فاختلطت بعلاقاته المختلفة وتسربت إلى أكثر مجالاته ..

● وفى هذا الغمار نسيت المرأة دينها وتجافت عنه ! .

وما يقول أحد إن المرأة المتحضرة المثقفة ، يربطها بالإسلام رباط حى ، أو تشدها إليه صلة قوية !

وما للإسلام فى حياة هؤلاء النساء أثر يذكر أو توجيه يلحظ ! ولقد وقر فى أذهانهن أنه مامن ضرورة لتدين المرأة ، فما لها وللدين ، وما لها ولتكاليفه البغيضة ، وهى لم توجد فى هذا العصر إلا للزينة والترف والمتاع !

إنما كان للمرأة شأن بالإسلام حين كانت عربية ، أو حين كانت تعتقد أنها كذلك ، أما اليوم فما شأنها بالإسلام وهى أوربية أو أمريكية لا كيان لها إلا بهذه النسبة ، ولا قيمة لها إلا بالانصياع والانقياد !

فماذا تفهم المرأة المسلمة اليوم من مثل قول الله سبحانه : ﴿ وقُلْ للمؤمناتِ يغضضن من أبصارهن ويحفظنَ فروجهن ، ولا يُبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، ولْيضربْنَ بخمرهن على جيوبهن .. ﴾ .

هل تفهم العاريات الكاسيات شيئاً من هذا النداء ، وهل هناك أثر لهذا التوجيه فى نفوسهن ؟ .

وليس ذلك إلا مثلا للصلة المقطوعة بين نساء الإسلام وبين حقائق الإسلام !

وأنّى لهن أن يعرفن دينهن أو يتأثرن به ، وقد نشأ فى أذهانهن صورة سيئة عنه ، ولم يتح لهن الاتصال به من قريب أو بعيد !..

والحق أن موقف رجال الإسلام والمدافعين عنه فى هذا الزمان من قضية المرأة موقف سيىء . إنهم يكتفون بالنعى على ما وصلت إليه حال المرأة من فساد وهم لم يهيئوا لها ما تعرف به دينها ويجذبها إليه ، من مدارس ومؤسسات وصحف . فأصبحت الفتاة تغشى كل مجال فى الدراسات ، ألا مجال دراسة الدين والاتصال به[1] .

لا بد أن تعلم المرأة أنها لتستطيعَ الإسهام فى خدمة مجتمعها وتخفيف ويلاته ، فلا بد لها من الاتصال القوى بالدين الذى أثر فى هذا المجتمع طيلة قرون مضت ، وما زال عاملا مؤثراً فى تكوينه .

إن جهلها بهذا الدين يشقى المجتمع ويزيد من بلائه .

فهى حين تنشىء طفلها بعيداً عن دينه معزولا عن توجيهه ، تسهم فى تكوين جيل منقطع عن تاريخه بعيد عن ماضيه .

وأى جيل ذلك الذى لا يعرف له ديناً ولا تاريخاً ، إلا صورا باهتة هنا وهناك ؟! إنه جيل لا يستقيم به أمر ولا يقوى به بناء .

وهى حين تعيش بعيدا عن توجيه دينها وهداه ، لن تستطيع القيام بواجبها أو أداء رسالتها ، بل هى حينئذ مصدر خطر على هذا المجتمع ، فتعيش مقلدة خاضعة لتأثير الغرب وهواه . وبهذا تذوب وتنماع وتفقد شخصيتها فى العالمين .

---

(١) كتب هذا الكلام منذ عشرين عاماً ، وقبل إنشاء المعاهد الدينية للفتيات وكليات البنات الإسلامية ، ولكننا ما نزال نطمع فى أن تصبح مناهج الدراسة فيها أجدى وأعمق فى التعريف بحقائق الإسلام .

وبعـــــــد ...

تلك هى الخطوط الرئيسية لموقف الإسلام من الغريزة وتوجيهاته فى السوك إزاءها .. إنه يهدف بها نحو البناء ويحول بينها وبين الهدم ..

وبذلك يصلح أمر الفرد وأمر المجتمع .. وتتحقق الحياة الطيبة الآمنة .

ولكن شتان بين موقف الإسلام هذا ، وموقف الغرب المتحضر .. أنه يتيح للغريزة أن تدمر الحياة وتفسدها ، وتشيع فى المجتمع مظاهر القلق والشقاء .

وقد كان المجتمع المسلم فى نجوة من هذا البأس قبل الاستعمار العسكرى والثقافى الذى ابتلى به فترة من الزمان .. قبل أن يتمكن دهاة الغرب ومفسدوه من التأثير فى عقول الذين تملكوا قياد المجتمع وتوجيهه ..

إنها قولة شائعة تتردد بها الأصداء ..

لا خُلق .. لا ضوابط .. لا حدود .. بل عبث وانطلاق .. إن أصواتا شتى تنطلق فى وقت واحد بهذا النداء المتشابه ، لتؤكد هذه الدعوة وتثبت جذورها فى المجتمع .

وأمام هذا يقف العلماء والدعاة عنه يذودون ويصرخون كلما رأوا مظاهر التغير فى السلوك !

وبهذا الاستنكار ينطق الخطباء ويكتب الكتاب ويلهج المتحدثون .

ولكن المشكلة تحتاج إلى حل آخر ..

إذا كان أنصار «الفوضى الغربية» ينمقون قولهم ويجملون أسلوب العرض ويقدمون أفكارهم زاهية براقة ، فلا أقل من أن يرتب أنصار «النظام الإسلامى» أيضاً حججهم وينسقوا أحاديثهم ، كى تستطيع الصمود فى وجه الزيف والخداع .

إن هذا ما سررت بمحاولته فى هذا الكتاب الوجيز .. فقد رأيت أن جمع الكلام عن الغريزة وما يتصل بها بطريقة موضوعية مرتبة ، سوف يكون أدعى لاقناع الشباب برأى الإسلام ، وكراهتهم لما يحاوله المفسدون .

لقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يحذر من هذا الخطر حين كان يقول لأصحابه :

« ماتركت بعد اى فتنة أضر على الرجال من النساء »[1] .

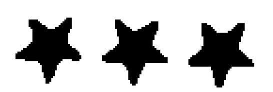
وهاهو العالم اليوم تحركه الغريزة المنحرفة وتتحكم فى سلوكه واتجاهه ، منذ أشاع الغرب فتنته وإغراءه ، ووضع لهما القواعد والبرامج .

---

(١) متفق عليه .

● ولن ينقذ الإنسانية من هذا التدنى إلا النظرة الإسلامية التى تضع كل شيء مكانه ، وتتيح للإنسان الحياة المتوازنة الصالحة ، التى تحقق معنى الإنسانية وترضى أشواق الإنسان .

ولعل المسلمين يفقهون دينهم ويعيشون تحت ظلاله ، ويتجافون عن أعدائهم الذين لا يرجون لهم إلا الخبال ، ولا يبغون لهم إلا الضلال .. ﴿ **والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً** ﴾[1] .



(١) سورة النساء ٤٥

فهرس الكتاب

الموضــوع	الصفحة

رقم الايداع ٧٣٠٣ / ٨٦

الترقيم الدولى ١ - ١٤٤ - ١٤٢ - ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية

١٢ نشاطى ـ شبرا مصر

دار الإعتصام

٨ شارع حسين حجازى ـ ت:٣٥٤٦٠٣١/٣٥٥١٧٤٨ ص.ب ٤٧٠ القاهرة

للطبع والنشر والتوزيع

١٥٠ قرشا